باتريك زوسْكيند



حكاية السيد زومَّر



ترجمة: د. نبيل الحفار

باتريك زوسكيند

حكاية السيد زومّر

مع رسومات بريشة الفنان الفرنسي

سِمْپِه

ترجمة : د. نبيل الحفار



حكاية
السيد زومَّر



Author: **Patrick Süskind**

اسم المؤلف: باتريك زوسكيند

Title: **Tale of Mr. Sommer**

عنوان الكتاب: حكاية السيد زومَّر

pictures: **Jean-Jacques Sempé**

رسومات: بريشة الفنان الفرنسي سِمْبِه

Translator: **Dr. Nabil Alhafar**

ترجمة: د. نبيل الحفار

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2017**

الطبعة الأولى: 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

ء

في ذلك الوقت، عندما كنت لا أزال أتسلق الأشجار - وهذا منذ زمن بعيد، بعيد جداً، قبل سنوات وعقود كثيرة، حينها كان طولي لا يتجاوز المتر إلا قليلاً، وقياس قدمي ثمانية وعشرين، وكنت خفيفاً لدرجة أنه كان بوسعي الطيران - لا، هذا ليس كذباً، فقد كان بوسعي حقاً أن أطير آنذاك - أو تقريباً على الأقل، أو يُفضل أن أقول: يُحتمل حقاً أنه كان بإمكاني حينذاك أن أطير، لو أني عندها قد أردت ذلك فعلاً وبإصرار، ولو أني حاولت حقاً، إذ... إذ ما زلت أذكر تماماً، أني ذات مرة كنت على وشك أن أطير. كان ذلك في الخريف، في سنتي المدرسية الأولى. كنت عائداً من المدرسة إلى البيت وكانت تهب ريح بالغة الشدة، لحد أنه كان بمقدوري دون أن أفرد ذراعيَّ، أن أميل عليها، مثل القافزين من على منصة الثلج بل وأكثر، دون أن أقع... وعندما ركضت في وجه الريح عبر المروج منحدراً على جبل المدرسة - إذ كانت المدرسة مبنية فوق جبل صغير خارج محيط القرية - وأنا أقفز عن الأرض قليلاً، فارداً ذراعي، رفعتني الريح، فصار بوسعي القفز دونما جهد لارتفاع مترين وثلاثة وأن أخطو مسافة عشرة أمتار بل اثني عشر متراً - ربما ليس بهذا الارتفاع ولا بهذا الطول، وما الفرق في ذلك -! أنا على كل حال طرت تقريباً، ولو أني فككت أزرار معطفي وأمسكت طرفيه بيديَّ وفردتهما مثل جناحين، عندها كان يحتمل أن ترفعني الريح بكل خفة،

من جبل المدرسة فوق منخفض الوادي وفوق الغابة حتى البحيرة، حيث يوجد بيتنا، ولدهشة أبي وأمي وأختي وأخي اللامحدودة، الذين كبروا وثقلوا جميعهم على إمكانية الطيران، كنت سأحلق جولة بأناقة فوق الحديقة لأنطلق من ثم متمايلاً عبر البحيرة ولأعود أخيراً محمولاً على الريح بكل تمهل، وأصل رغم ذلك في الموعد المناسب تماماً لتناول طعام الغداء.

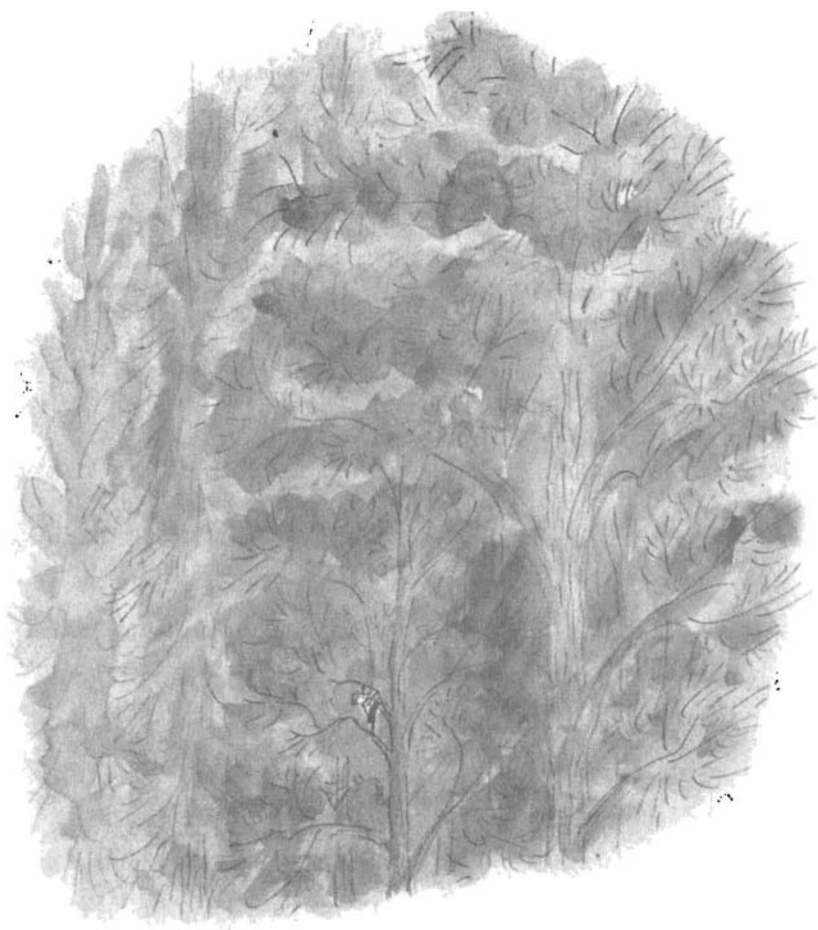
إلا أنني لم أفك أزرار المعطف وبالتالي لم أحلق عالياً حقاً. لا لأني خفت من الطيران، وإنما لأني لم أدرِ كيف وأين كنت سأهبط، وما إذا كنت سأتمكن من الهبوط على الأرض ثانية أصلاً. الفناء أمام بيتنا كان قاسياً جداً وحديقتنا صغيرة جداً وماء البحيرة بارداً جَداً لعملية هبوط. التحليق للأعلى لم يكن مشكلة، ولكن كيف يحط المرء ثانية؟

كان الحال مشابهاً عند تسلق الأشجار: بلوغ ذراها يتحقق بتجاوزأبسط المصاعب. فالمتسلق يرى الأغصان أمامه، يتلمسها بيده ويتمكن من اختبار قوتها قبل أن يعتمد عليها للصعود إلى الأعلى ثم لسندِ القدم عليها. أما عند الهبوط فلا يرى المرء شيئاً، وعليه كالأعمى البحَث بقدمه بين الأغصان التي تحته عن موطىءٍ قوي. وكثيراً ما يكون الموطىء غير ثابت، بل منخور أو زلق، فيهوي المتسلق. وإن لم يكن متمسكاً بكلتي يديه بغصن قوي ثابت فسيسقط كالحجر على الأرض، بناء على ما يسمى قوانين السقوط، التي اكتشفها الباحث الايطالي غاليليو غاليليه قبل نحو أربعمئة سنة، ومازالت سارية المفعول حتى اليوم.

وقد وقعت أسوأ سقطاتي في أثناء السنة المدرسية الأولى نفسها. سقطت حينها من ارتفاع أربعة أمتار ونصف من شجرة تنوب أبيض، وجرى السقوط وفق القانون الأول من قوانين غاليليه، الذي ينص



على أن مسـافة السـقوط تعادل مربع نصف مردود تسـارع الأرض والزمن، أي أن ($S = ½ g. t_2$)، واستغرقتُ بناء على ذلك بالتحديد ٠،٩٥٧٨٢٦٢ ثانية. وهذا وقت في غاية القصر. إنه أقصر من الوقت الذي يحتاجه المرء ليعد من ٢١ إلى٢٢، بل حتى أقصر من الوقت الذي يحتاجه ليلفظ العدد «٢١» بشكل سليم! بهذه السرعة مر الأمر، بحيث لم أتمكن من فرد ذراعيّ ولا من فك أزرار معطفي لأستخدمه كمظلة، بل لم تدركني الفكرة المنقذة، أني لست مضطراً للسقوط، مادمت قادراً على الطيران - لم أعد ألحقُ أن أفكر في هذه ٠،٩٥٧٨٢٦٢ ثانية، وقبل أن أستوعب أني أسقط اصطدمت بأرض الغابة، وفق قانون السقوط الثاني لغاليليه أي أن ($v = g.t$) بسرعة متزايدة بلغت ٣٣ كم/ سا. وكان السقوط من الشدة بحيث أني كسرت بمؤخرة رأسي غصناً بثخن ساعدي. القوة التي تسببت في ذلك تسمى الجاذبية الأرضية. وهي لا تحافظ فحسب على تماسك باطن الكرة الأرضية، بل لها خاصية معقدة تجذب بموجبها كل الأجسام إليها مهما كبرت أو صغرت بقوة عمياء، وما دمنا فحسب هاجعين في بطون أمهاتنا أو نغوص تحت الماء، فإننا بمنجاة منها ظاهرياً. إضافة إلى هذه المعرفة الجوهرية نابني من هذه السقطة تورم في رأسي. بعد بضعة أسابيع زال التورم، ولكن بمرور السنين صرت أشعر، في المكان الذي أصيب بالتورم، بتنميل وخفق عجيبين كلما تغير الطقس، ولاسيما عندما يلوح الثلج في الأفق. واليوم بعد مرور أربعين سنة تقريباً يخدمني قفا رأسي كبارومتر معتمد، إذ يمكّنني بدقة أكبر من مركز الأرصاد الجوية من أن أتنبأ بما إذا كان الطقس غداً سيكون ماطراً أو مثلجاً، وهل ستشرق الشمس أو ستهب عاصفة. كما أعتقد أن حالة الاضطراب والتشتت التي أعانيها مؤخراً هي نتيجة متأخرة لتلك السقطة من أعلى شجرة التنوب الأبيض. صرت مثلاً أجد صعوبة متزايدة في التركيزعلى موضوع ما، أو في صياغة فكرة محددة



باختصار ووضوح، وإذا كنت أروي حكاية مثل هذه، فعلي أن أشحذ انتباهي كي لا يضيع مني الخيط، وإلا فإني سأتوه ولا أعرف أين بدأت.

إذن، في ذلك الوقت عندما كنت لا أزال أتسلق الأشجار - وكنت أتسلق كثيراً وجيداً، و لم أسقط دائماً! كنت قادراً على تسلق أشجار لا أغصان لها أسفل جذعها، فكان لابد عندها من الزحف عالياً علَى الجذع نفسه، وكنت قادراً على التسلق من شجرة لأخرى، كما بنيت لنفسي مراكز مراقبة عالية، وبنيت مرةً بيتَ شجرة حقيقياً بسقف ونوافذ وأرضية مفروشة ببساط في وسط الغابة وعلى ارتفاع عشرة أمتار - أخ، أعتقد أني أمضيت معظم طفولتي على الأشجار، إذ كنت آكل وأقرأ وأكتب وأنام أعلى الأشجار، هناك تعلمت مفردات إنكليزية والأفعال الشاذة باللاتينية ومعادلات رياضية وقوانين فيزيائية مثل قوانين سقوط غاليلية التي ذكرتها قبل حين، كل شيء على الأشجار. كنت أنجز واجباتي المدرسية على الأشجار، الشفهية منها والكتابية، وكنت مغرماً بأن أتبول من أعلى الشجرة بقوس واسع عبر الأغصان والأوراق الإبرية.

على الأشجار كان يسود الهدوء ويُترك المرءُ لشأنه، فلا نداءات مزعجة من جانب الأم ولا أوامر الأخ الأكبر لأداء الواجبات تصل إلى أعالي الأشجار، حيث لايوجد سوى النسيم وحفيف الأوراق وطقطقة الجذوع الخافتة... والمنظر، المنظر الرائع: لم أكن أطل فقط على بيتنا وحديقتنا بل على البيوت والحدائق الأخرى أيضاً، وأرى حتى إلى الأراضي ما وراء البحيرة وإلى الجبال، وقرب المساء عندما تغيب الشمس، كنت أستطيع أن أراها من ذروة شجرتي وهي تنزل وراء الجبل، فيما هي بالنسبة للناس تحت قد غابت منذ مدة. وكان هذا مثل الطيران تقريباً. ليس بنفس درجة المغامرة، وربما ليس بالأناقة

نفسها، لكنه بديل جيد عن الطيران، لاسيما وأني كنت أنمو تدريجياً، فصار طولي ١،١٨ م وصار وزني ٢٣ كغ، ما يجعل الطيران ببساطة أمراً عسيراً بسبب ثقلي، حتى ولو هبت ريح عاصفة وفككت أزرار معطفي وفردته. في حين يمكنني تسلق الأشجار طوال حياتي - هكذا فكرت حينذاك -، حتى عندما يصير عمري ١٢٠ سنة وأكون عجوزاً نخراً سابقى أجلس في ذروة شجرة دردار أو زان أو تنوب، مثل قرد عجوز، لتؤرجحني الريح بنعومة وأمد نظري عبر الأراضي متجاوزاً البحيرة إلى الجبال...

ولكن ما بالي أحكي هنا عن الطيران وتسلق الأشجار! وأثرثر حول قوانين السقوط التي اكتشفها غاليليو غاليليه وعن الورم البارومتري في مؤخرة رأسي، الذي أصابني بالتشتت! في حين كنت أريد الكلام على أمر مغاير تماماً، عن حكاية السيد زومّر - بالخطوط العريضة قدر الإمكان، ففي واقع الأمر لم يكن هناك حكاية متكاملة من الألف إلى الياء، إنما كان هناك هذا الإنسان العجيب الغريب، الذي تقاطع درب حياته - أم يُفضل القول: درب مشيه؟ - بضع مرات مع دربي. لكن يُحبّذ أن أبدأ من البداية ثانية.

في ذلك الوقت، عندما كنت لا أزال أتسلق الأشجار، عاش في قريتنا... - لا، ليس في قريتنا تماماً، أي في «تحت البحيرة»، وإنما في القرية المجاورة «فوق البحيرة»، رغم أنه يصعب التمييز بينهما، لأن تحت البحيرة وفوق البحيرة وجميع القرى الأخرى لم تكن منفصلة تماماً عن بعضها بعضا، بل شكلت صفاً متواصلاً على طول شاطىء البحيرة، دون بداية أو نهاية واضحة، كطوق نحيف من الحدائق والبيوت والأحواش وأكشاك القوارب... في هذه المنطقة إذن وعلى مسافة أقل من كيلومترين عاش رجل اسمه «السيد زومّر». أما اسمه الأول فلم

يعرفه أحد، أهو مثلاً بيتر أو باول أو هاينريش أو فرانتس - كسافر، أو ربما الدكتور أو البروفِسور زومّر، أو بروفسور دكتور زومر - كان يُعرف من قبل الجميع بـ «السيد زومر» وحسب. كما لم يعرف أحد ما إذا كان السيد زومر يمارس مهنة ما أو كانت له فيما مضى مهنة ما. كان المعروف فقط هو أن السيدة زومر تمارس مهنة، وهي صناعة الدمى. كانت تجلس من الصباح وحتى المساء في بيت زومر في قبو دار معلم الدهان شْتانْغِلماير، وهي تصنع دمى صغيرة للأطفال من قماش ونشارة خشب وصوف، تجمعها مرة في الأسبوع في علبة كرتونية كبيرة وتأخذها إلى البريد. وعلى طريق عودتها من مركز البريد تدخل بالتتالي إلى المتجر فالخباز فاللحام فالخضري، لتصل إلى بيتها حاملة أربعة أكياس تسوُّق ممتلئة، وتبقى في البيت منهمكة في صناعة الدمى حتى الأسبوع القادم. من أين أتت عائلة زومر، لا أحد يعرف. جاءا ذات يوم ببساطة، هي بالباص وهو مشياً، واستقرا هنا منذ ذلك الحين. لم يكن لهما أطفال ولا أقارب ولا زوار. ورغم أن الجميع لا يعرفون شيئاً عن آل زومر، ولاسيما عن السيد زومر، يمكن للمرء القول بكل ثقة بأن السيد زومر آنذاك كان الرجل الأكثر شهرة في محيط منطقتنا كلها. في دائرة طول محيطها ٦٠ كم على الأقل حول البحيرة، لم يوجد إنسان، رجل أو امرأة أو طفل لم يعرف السيد زومر، بل حتى الكلاب، وذلك لأن السيد زومر كان دائماً على الطريق. من الصباح وحتى المساء كان السيد زومر يمشي عبر المنطقة. لم يمض يوم من السنة دون ان نرى السيد زومر ماشياً على قدميه. سواء أكان يهطل ثلج أو برَد، سواء أكان الجو عاصفاً أو كانت تمطر دِلاءً، سواء أكانت الشمس حارقة أو الإعصار وشيكاً - في كل الحالاَت لم يتخلَ السيد زومر عن جولته. غالباً ما كان يغادر بيته قبل شروق الشمس، حسب روايات صيادي السمك، الذين كانوا يخرجون بقواربهم في الرابعة قبل الفجر ليجمعوا شباكهم،



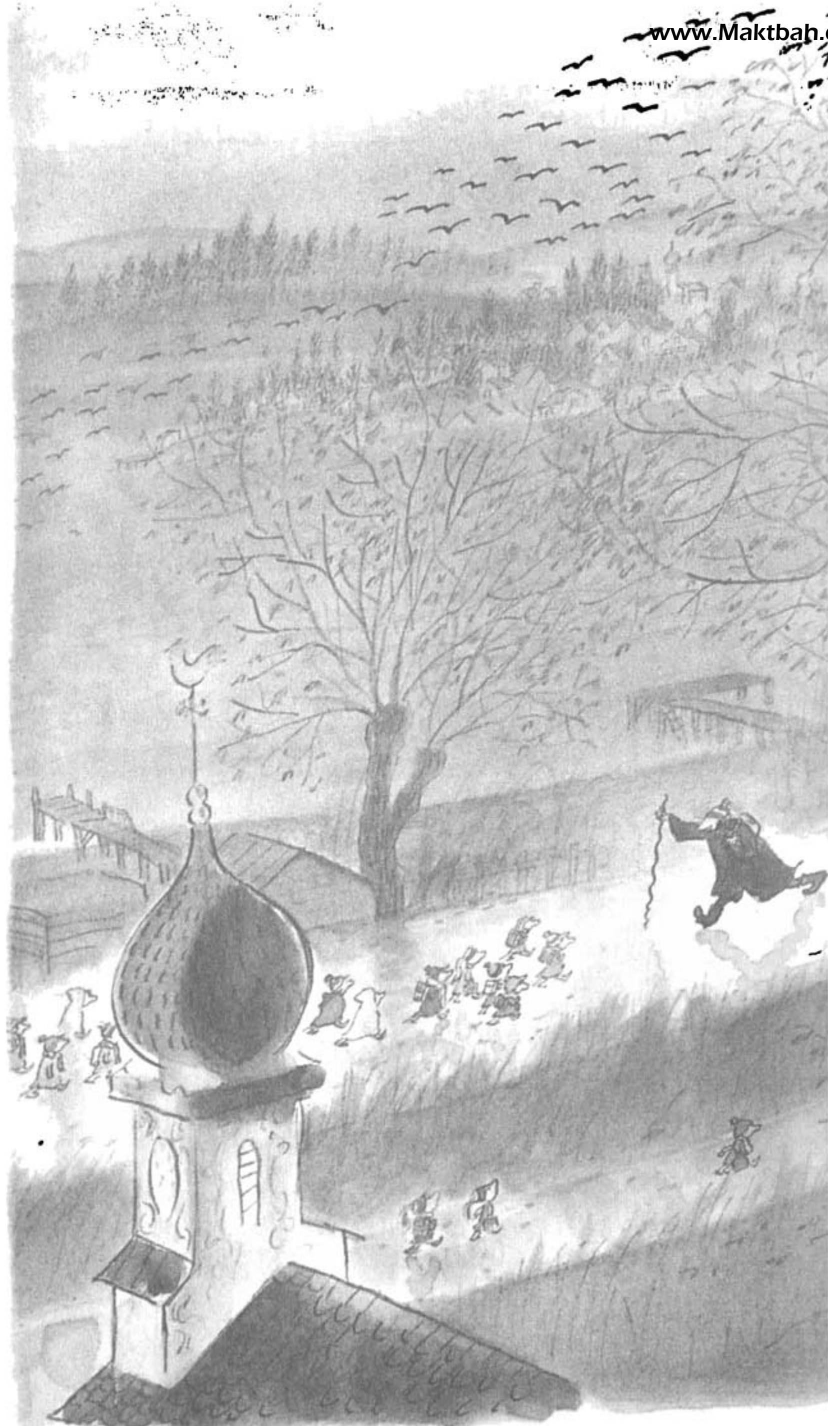
ويعود متأخراً في الليل، عندما يكون القمر في كبد السماء. وكان خلال هذا الوقت يقطع مسافات لا يُصَدّق طولها. فأن يلف حول البحيرة في يوم واحد، ما يعادل ٤٠ كم تقريباً، كان أمراً عادياً بالنسبة إلى السيد زومر. وأن يذهب إلى عاصمة المحافظة ويعود مرتين أوثلاث مرات يومياً، ١٠ كم ذهاباً ومثلها إياباً، لم يكن مشكلة للسيد زومر! عندما كنا نحن الأطفال في السابعة والنصف صباحاً نمشي متحاملين على أنفسنا من النعاس على طريقنا إلى المدرسة، كنا نرى السيد زومر قادماً بعكس الاتجاه يقظاً ونضراً وقد مضت عليه ساعات في الطريق؛ وعندما نعود ظهراً إلى بيوتنا متعبين وجائعين، يتجاوزنا السيد زومر بخطوات واسعة؛ وفي مساء اليوم نفسه قبل النوم عندما أنظر من النافذة إلى الخارج، كان يحتمل أن أرى بصورة غير واضحة هيئة السيد زومر النحيلة الطويلة عابرة بسرعة على طريق البحيرة.

لم يكن تعرُّفه صعباً، ومهما بعُدت المسافة ما كان للعين أن تخطىء ظاهرة هيئته المميزة. في الشتاء كان يرتدي معطفاً طويلاً أسودَ، فضفاضاً جداً ومن قماشٍ يبدو متصلباً على نحو غريب، بحيث كان يقفزعن جسمه مع كل خَطوة يخطوها مثل قشرة واسعة جداً. وكان يلبس على قدميه جزمة مطاطية ويغطي صلعته بطاقية صوفية حمراء. أما في الصيف – والصيف عند السيد زومر يمتد من مطلع أيار / مايو إلى نهاية تشرين الأول / أكتوبر، أي أنه أطول فصل من فصول السنة –، فكان يضع على رأسه قبعة قشية مسطحة ذات شريط قماشي أسود، ويلبس قميصاً كتانياً بلون الكرَميل وبنطالاً قصيراً بلون الكرَميل أيضاً، يُظهِر ساقيه الطويلتين النحيلتين القاسيتين، اللتين لم يتبق فيهما تقريباً سوى الأوتار والدوالي بشكل مضحك، قبل أن تختفيا في فردتي بوطٍ جبلي غليظ. في أيار / مايو كانت هاتان الساقان ناصعتي البياض، وقد ارتسمت عليهما الدوالي بشكل واضح تماماً كنظام ريٍ

حبري اللون شديد التشعب؛ لكنهما تكتسبان بعد بضعة أسابيع لوناً عسلياً، وتضيئان في تموز / يوليو بلون الكرَميل مثل القميص والبنطال. وكانتا في الخريف تصطبغان بتأثير الشمس والريح والطقس بلون بني داكن، بحيث لا يستطيع المرء تمييز الأوتار من الدوالي أو من خطوط العضلات، بل كانت ساقا السيد زومر مثل جذعين مقشورين وكثيري العقد لشجرتي صنوبر عتيقتين، إلى أن تختفيا عن الأنظار أخيراً في تشرين الثاني / نوفمبر تحت البنطال الطويل والمعطف الطويل الأسود، حتى الربيع القادم، حين تكونان قد استعادتا لون بياض الجبن الأصلي.

ثمة شيئان رافقا السيد زومر في الصيف كما في الشتاء، ولم يسبق لإنسان أن رآه دونهما مطلقاً: أولهما عصاه وثانيهما شنطة ظهره. عصاه لم تكن عصا مشي عادية، بل طويلة ذات انحناء طفيف، كانت غصن شجرة كستناء، تصل حتى كتف السيد زومر وتخدمه كساق ثالثة. لولا مساعدتها لما تمكن قطعاً من تحقيق تلك السرعات في المشي والمسافات الهائلة التي يقطعها، وفي هذا ما يتجاوز إنجازات عصا المشي العادية بمراحل. كل ثلاث خطوات كان السيد زومر يقذف عصاه بيمينه إلى الأمام، يثبتها في الأرض ويسحب نفسه بها متجاوزاً إياها بكل عزم إلى الأمام، بحيث بدا الأمر وكأن مهمة ساقيه تنحصر وحسب في تسهيل الانزلاق، فيما يأتي الدفع الحقيقي من قوة ذراعه اليمنى، التي تنتقل بوساطة العصا إلى الأرض - كما في حال كثير من المراكب النهرية المسطحة، التي تدفع نفسها إلى الأمام على سطح الماء بمعونة عصا طويلة. أما شنطة الظهر فكانت خاوية دائماً، أو تقريباً، إذ إنها لا تحتوي، على حد علم العارفين، إلا على سندويشات السيد زومر المدهونة بالزبدة، إضافة إلى واقٍ مطري متصل بطاقية، يصل حتى الركبتين وهو من البلاستيك القابل للطي، يلبسه السيد زومر في حال فاجأه المطر على الطريق.





ولكن، إلى أين كانت تقوده جولاته؟ ما الهدف من هذه المسيرات اللانهائية؟ ما سبب ولأي غرض كان يسرع السيد زومر طوال اثنتي عشرة، أربع عشرة، ست عشرة ساعة يومياً عبر المنطقة؟ هذا ما لم يعرفه أحد.

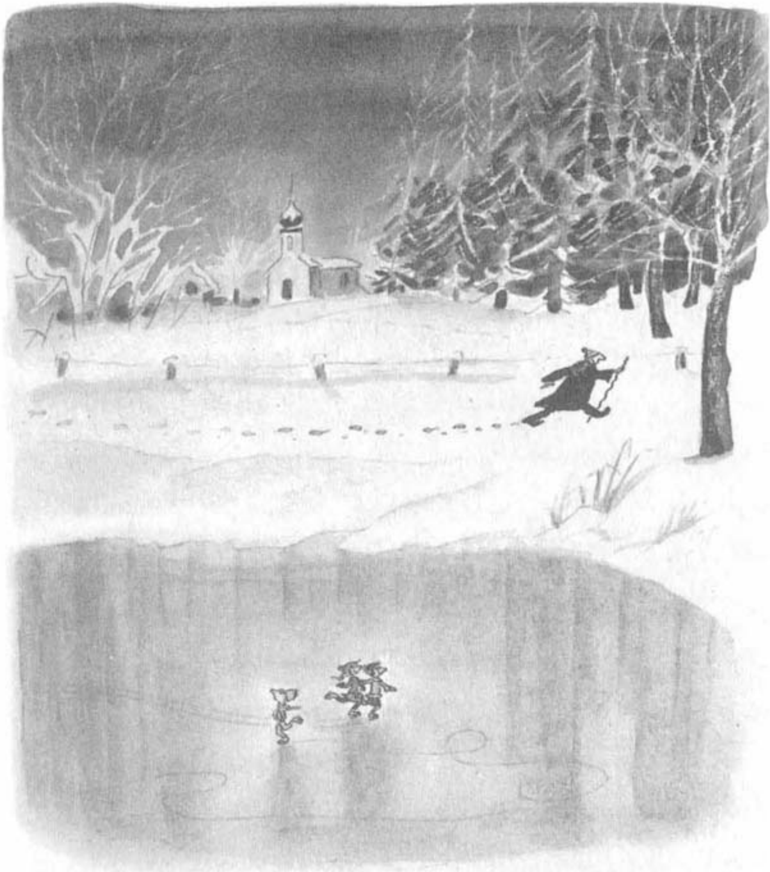
بعد الحرب بقليل، عندما جاء آل زومر للإقامة في القرية، لم تلفت مثل هذه المشاوير انتباه أحد، فالجميع آنذاك كانوا يمشون عبر المنطقة حاملين شنطات ظهر. لم يكن هناك بنزين ولا سيارات، وثمة باص يمر مرة واحدة فقط طوال النهار. و لم يوجد وقود للتدفئة ولا مواد غذائية للأكل، وللحصول من مكان ما على بعض البيض والطحين أو البطاطا أو كيلو من قوالب الفحم أو حتى للحصول على ورق رسائل أو شفرات حلاقة، كان لابد من المشي عدة ساعات على الأقدام وحمل الغنيمة إلى البيت إما في عربة جر أو في شنطة ظهر. ولكن بعد بضع سنوات صار بإمكان المرء شراء كل شيء من القرية، بما في ذلك الفحم ايضاً، وصارت الباصات تمر خمس مرات في اليوم. وبعد بضع سنوات أخرى امتلك اللحام سيارته الخاصة، ثم رئيس البلدية، ثم طبيب الأسنان. ومعلم الدهان شتانغلماير صار يقود دراجة نارية كبيرة وابنه دراجة نارية صغيرة. بقي الباص يمر من القرية، ولكن ثلاث مرات يومياً، و لم يعد يخطر في بال أحد أن يمشي أربع ساعات إلى عاصمة محافظتنا ليشتري بعض الحاجيات أو ليجدد جواز سفره. لا أحد سوى السيد زومر، الذي استمر في المشي كسابق عهده. يشد الشنطة على ظهره صباحاً باكراً ويتناول عصاه في يمينه وينطلق مسرعاً عبر الحقول والمروج، على طرقات رئيسية وجانبية، عبر الغابات وحول البحيرة، إلى المدينة ذهاباً وإياباً، من قرية إلى قرية... حتى وقت متأخر من المساء.

إلا أن الغريب في الأمر، هو أنه لم يقضِ أية حاجة في أي وقت من



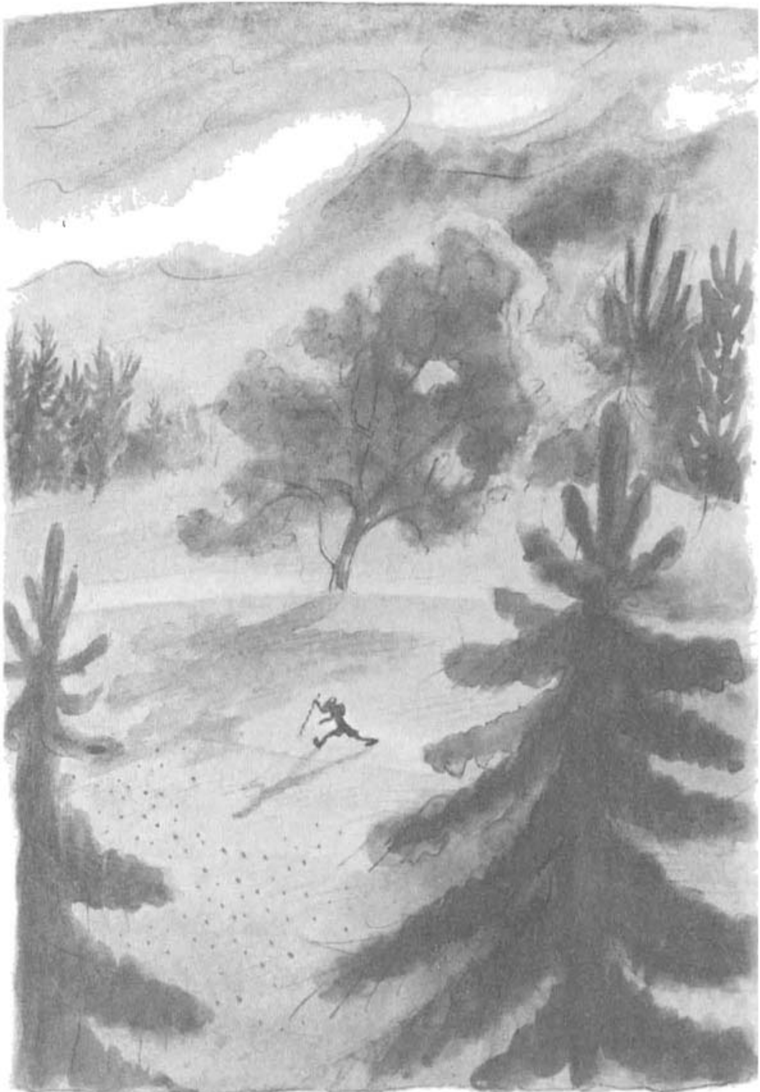
الأوقات. فلم يحمل شيئاً و لم يشترِ شيئاً، وشنطة ظهره بقيت خالية، إلا من شطائر الزبدة والواقي المطري. إنه لم يذهب إلى مكتب البريد ولا إلى مكتب المحافظة، بل كان يترك كل هذه الأمور لزوجته. لم يزر أحداً و لم يتوقف في أي مكان. عندما كان يذهب إلى المدينة، لم يكن يدخل إلى مطعم ليأكل أو ليشرب شيئاً على الأقل، بل إنه حتى لم يجلس على مقعد عام ليستريح قليلاً، بل كان يستدير على عقبيه عائداً نحو القرية أو إلى جهة ما. وإذا سأله أحدهم «أين كنت يا سيد زومر؟» أو «إلى أين أنت ذاهب؟»، كان يهز رأسه باستياء، وكأن هناك ذبابة تقف على أرنبة أنفه، ويهمس بكلام ما، إما غير مفهوم كلياً بالنسبة إلى السامع أو جزئياً فقط وبلفظ يشبه: «... مستعجللأطلعجبلالمدرسة... اليوملازمإلحقمنكلبد... كتيرمستعجلماعنديوقت...» - وقبل أن يلفظ السائل «ماذا؟ عفواً ماذا قلت؟ إلى أين؟» يكون السيد زومر قد انطلق وهو يخبط الأرض بعصاه بقوة.

مرة واحدة فقط سمعت من السيد زومر جملة كاملة، جملة مفهومة وملفوظة بشكل واضح، فما عدت أنساها ومازال وقعها في أذني حتى اليوم. كان ذلك بعد ظهر يوم أحد في نهاية تموز / يوليو أثناء عاصفة مزعجة، رغم أن النهار قد بدأ جميلاً بسماء صافية، واستمر القيظ حتى الظهر لدرجة أن اشتهى المرء عدم التوقف عن شرب الشاي المبرد مع الليمون. كنت ذاهباً مع ابي إلى سباق الخيل كالعادة كل يوم أحد. وبالمناسبة لا ليراهن - وددت أن أذكر الأمر عرَضاً -، إنما عن هواية لا أكثر. فرغم أنه لم يركب صهوة حصان طوال حياته، كان مهووساً بحب الخيول وخبيراً بها. كان يحفظ غيباً أسماء جميع الفائزين في سباق دِرْبي منذ عام ١٨٦٩ بالتسلسل وبالعكس أيضاً. ومن سباق دربي الإنكليزي و«بري دو لارك» الفرنسي كان يحفظ أسماء أهمهم منذ ١٩١٠. كان يعرف أي الجياد يحب التربة الجافة، وأيها يفضل



التربة الطرية، ويعرف سبب قفز الجياد العتيقة فوق الحواجز ولماذا لاتركض الجياد اليافعة أكثر من ١٦٠٠ م، كان يعرف وزن الجوكي ولماذا لفّت زوجة صاحب الجواد عصابة حول قبعتها بالألوان أحمر - أخضر - ذهبي. مكتبته الخاصة بالخيول كانت تتجاوز ٥٠٠ كتاباً، وفي أواخر عمره امتلك جواداً - بالأحرى نصف جواد -، دفع فيه ٦٠٠٠ ماركاً، ما أزعج والدتي جداً، وليدخله السباق بألوانه - لكن هذه حكاية أخرى، سأحكيها في مرة قادمة.

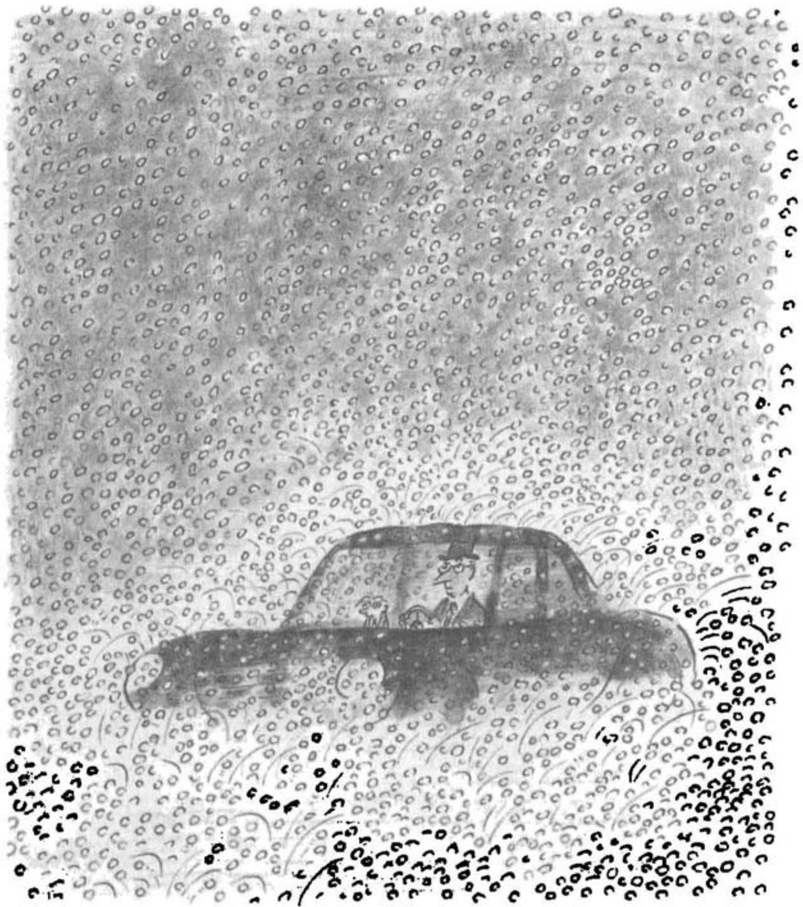
كنا نحكي إذن في موضوع سباق الخيل، وفي وقت متأخر بعد الظهر، في طريق عودتنا إلى البيت كان الطقس لايزال حاراً، بل أشد حرارة ورطوبة من فترة الظهيرة، لكن السماء كانت مغلفة بطبقة رقيقة من الضباب. في جهة الغرب تجمعت سحب رصاصية أطرافها بلون صفرة القيح. بعد ربع ساعة اضطر أبي لإشعال كاشفَي السيارة، فقد اقتربت الغيوم فجأة مشكلة ستارة تحجب الأفق وترمي على الأرض ظلالاً كئيبة. ثم اندفعت نحونا من الهضاب هبات ريح اخترقت حقول الحبوب في خطوط واسعة، فبدا المنظر وكأن الطبيعة تُمشّط الحقول، فارتعدت الشجيرات والأشجار. وتقريباً في الوقت نفسه بدأت تمطر، لا، لم يكن مطراً حقيقياً، بل بدأ الأمر بقطرات سمينة منفردة، بحجم حبات عنب، تصطدم وتنفجر على الأسفلت وعلى غطاء المحرك والزجاج الأمامي والخلفي. ثم انفجرت العاصفة. كتبت الصحف لاحقاً إنها أسوأ عاصفة في منطقتنا منذ اثنتين وعشرين سنة. لا أعرف مدى صحة ذلك، فقد كنت حينها في السابعة من عمري، لكنني متأكد من أني لم أمر بمثل هذه العاصفة ثانية في حياتي كلها، وتحديداً ليس في سيارة على الطريق العام. لم يعد المطر يهطل في قطرات، بل أخذت السماء تسكب دلاء. وخلال وقت قصير غرق الطريق وأخذت السيارة تحرث عبر الماء مولدة نوافير عالية على الجانبين مثل جدارين مائيين،



وعلى الرغم من أن ماسحة الزجاج الأمامي كانت تتحرك بشكل محموم، إلا أننا لم نرَ شيئاً إلا عبر الماء.

لكن الأسوأ كان أمامنا بعد. تدريجياً تحولِ المطر إلى برَد. سمعنا ذلك قبل أن نراه، من التغير الذي طرأ على صوت الهطل إلى طقطقة كثيفة متسارعة، كما شعرنا به من قشعريرة البرد الذي تسرب إلى داخل السيارة، ومن ثم رأينا حبات البرَد، التي بدأت صغيرة كرؤوس الدبابيس ثم صارت بحجم البازلاء، فبحجم كريات البلي وأخيراً بحجم كرات بيضاء صقيلة كانت تطرق غطاء المحرك وترتد نحو الأعلى في فوضى متداخلة عنيفة، أشعرتنا بالدوخة. لم يعد من الممكن التقدم بالسيارة ولو متراً واحداً، فتوقف أبي على جانب الطريق - عما أتكلم هنا، هل قلت جانب الطريق، إذ إننا لم نعد نرى طريقاً ولا حقلاً ولا شجرة ولا أي شيء أبعد من مترين. وضمن هذين المترين لم نرَ سوى الملايين من كرات البلياردو المتجلدة تتطاير في الهواء في صخب مرعب مرتدة عن سطح السيارة. كانت الضجة داخل السيارة مرتفعة إلى درجة أننا لم نستطع تبادل الكلام. كنا كالجالسين داخل طبل هائل يقرعه عملاق هائج، فيما نتبادل نحن النظرات ونرجف برداً، آملين ألا يتحطم غلاف السيارة الذي يحمينا.

بعد دقيقتين انتهى كل شيء. بين لحظة وأخرى توقف البرَد وسكنت الريح، و لم يتبق سوى رذاذ خفيف. حقل الحبوب المحاذي للطريق، والذي مشطته الريح قبل حين، بدا وكأن جحافل أقدام قد داسته. ومن حقل الذرة الذي يليه لم يبق منتصباً سوى السوق. أما الطريق الأسفلتي نفسه فقد كان مغطى بشظايا ونثار على مدى النظر - شظايا البرَد وأوراق أشجار مقصوفة وأغصان مكسورة وسنابل. وفي نهاية الطريق تمكنتُ، من خلال حجاب الرذاذ الناعم، من رؤية هيئة إنسانٍ ماشياً



على الطريق. قلت ذلك لأبي ودققنا النظر كلانا في الهيئة الصغيرة البعيدة، وبدا لنا الأمر أشبه بأعجوبة، أن نرى إنساناً يمشي في العراء، لاسيما بعد قصف البرَد الذي سوّى كل ما حولنا بالأرض. تابعنا طريقنا والعجلات تطحن تحتنا شظايا البرَد. وعندما اقتربنا من الهيئة البشرية تعرفت البنطال القصير والساقين الطويلتين المملوءتين بالعقد واللتين تلمعان الآن بللاً، إضافة إلى الواقي المطري الأسود الذي ظهرت عليه الخطوط العامة لشنطة الظهر، تعرفت مشية السيد زومر.

كنا قد حاذيناه عندما طلب مني أبي إنزال زجاج الشباك – كان الجو في الخارج قارساً جداً –، «يا سيد زومر! تفضل اركب! سنأخذك معنا!» هتف أبي عبر الشباك إلى الخارج، وتسلقت أنا إلى المقعد الخلفي لأعطيه مكاني. لكن السيد زومر لم يرد، حتى أنه لم يتوقف، وبالكاد رمى نظرة جانبية نحونا. بل تابع خطوه السريع المدفوع بعصا الكستناء على الطريق المغطى بالبرَد. لحق أبي به وهتف ثانية من الشباك المفتوح «يا سيد زومر، هلا ركبت يا رجل! أفي هذا الطقس! سأوصلك إلى بيتك!».

إلا أن السيد زومر لم يستجب، بل تابع طريقه بمثابرة وإصرار. بدا لي طبعاً وكأنه قد فتح فمه قليلاً ولفظ إحدى أجوبته غير المفهومة. لكني لم أسمع شيئاً، وربما كانت حركة شفتيه نابعة من البرْد. وعندها مال أبي قليلاً إلى اليمين وهو يسوق طوال الوقت بموازاة السيد زومر، وفتح باب السيارة وصاح نحو الخارج: «اركب يا رجل، كرمى لله! أنت مبلول حتى الجلد! ستجلب الموت لنفسك!».

إن تعبير «ستجلب الموت لنفسك» يُعد في واقع الأمر غريباً جداً عن أبي. لم يسبق لي أن سمعته يقول لأحد على نحو جاد: «ستجلب الموت لنفسك!». كان دائماً عندما يسمع هذه الجملة أو يقرأها، يقول مفسراً:


Das Wort "Klaustrophobie" ist
lateinisch-griechischen Ursprungs...
bedeutet soviel wie "geschlossen"
oder "abgeschlossen"...
Klaustrophie ist eine Krankheit,
bei der man nicht mehr ruhig in
seinem Zimmer sitzen kann.

«إن هذا تعبير نمطي، والتعبير النمطي - افهموا ذلك جيداً - هو صيغة كلامية لاكتها الأفواه والأقلام كثيراً من قِبَل فلان وعلان، فلم تَعد تعني شيئاً. «ويتابع قائلاً وقد أخذته الحميّة» وهذا تماماً على نفس الدرجة من الغباء الفارغ مثل سماعكم جملة: «اشربي كاساً من الشاي ياعزيزتي، فسيفيدك جيداً!» أو: «كيف حال مريضنا يادكتور؟ أتظن أنه سينجو؟» هذه الجمل ليست صادرة من الحياة، بل من روايات رديئة ومن أفلام أمريكية سخيفة، ولهذا إياكم أن أسمعها منكم! على الإطلاق!».

بهذه الطريقة كان والدي يسترسل بشأن جمل نمطية مثل «ستجلب الموت لنفسك». ولكن تحت رذاذ المطر على الطريق العام المغطى بشظايا البرَد وهو يسوق بمحاذاة السيد زومر صاح أبي عبر الباب المفتوح بالجملة النمطية: «ستجلب الموت لنفسك!» فإذا بالسيد زومر يقف. أعتقد أنه تحديداً عند سماعه «تجلب الموت» تصلب واقفاً وعلى نحو فجائي بحيث اضطر أبي إلى ضغط الفرامل كي لا يتجاوزه. ثم نقل السيد زومر عصا الكستناء من يده اليمنى إلى اليسرى، التفت إلينا وقال بصوت عالٍ وواضح وهو يضرب كعب عصاه بالأرض عدة مرات في تعبير عن عناد يائس: «إذن دعوني أخيراً بسلام!» ولم يقل شيئا آخر. هذه الجملة فقط. أتبعها بإغلاق باب السيارة، ثم أعاد العصا إلى يده اليمنى وتابع مشيته من دون نظرة جانبية أو التفاتة إلى الوراء.

«هذا الرجل مجنون تماماً»، قال أبي.

وعندما تجاوزناه تمكنتُ عبر الزجاج الخلفي من النظر في وجهه. كان خافضاً نظره، لا يرفعه إلا كل ثاني خطوة، ليحدق إلى الأمام لحظةً، بعينين مفتوحتين عن آخرهما ومملوءتين بالهول، كي يتأكد من دربه. كان ماء المطر يسيل على خديه ويقطر من أنفه وذقنه. وكان فمه مفتوحاً قليلاً، وبدا لي للمرة الثانية أن شفتيه تتحركان. ربما كان يكلم نفسه أثناء مشيه.

«السيد زومر هذا مصاب بالكلاوستروفوبيا»، قالت أمي عندما جلسنا جميعنا لتناول طعام العشاء وتحدثنا عن العاصفة وعن واقعة التقائنا بالسيد زومر وأضافت: «بنوع ثقيل منها، وهي مرض لا يستطيع المصاب به البقاء هادئاً في غرفته».

وأردف أبي شارحاً: «الكلاوستروفوبيا إذا توخينا الدقة» - فقاطعته أمي قائلة: «أن لا يستطيع الإنسان البقاء هادئاً في غرفته. هذا ما أخبرني به الدكتور لوخْتَرهاند وشرحه لي بالتفصيل».

فتابع أبي: «كلمة «كلاوستروفوبيا» من أصل لاتيني - يوناني، ولا شك في أن الدكتور لوخترهاند يعرف ذلك. وهي تتألف من جزئين «كلاوستروم» و«فوبيا»، ومعنى كلاوستروم هو «مغلق» أو «مقفل»، كما ترد في لغتنا في كلمة «كلاوزِه» (= مُعتزَل أو صومعة) أو في اسم مدينة «كلاوزِن»، ولها مقابِلات بالإيطالية والفرنسية. من يعرف منكم كلمة أخرى تتضمن معنى «كلاوستروم»؟».

فقالت أختي: «أنا، سمعت من ريتا شْتانغلماير أن السيد زومر يرجف دائماً. كل أطرافه وأعضاؤه ترجف. إنه مصاب بارتجاف العضل مثل فيليب الراجف، تقول ريتا. فما أن يجلس على كرسي حتى يرجف فوراً. وفقط عندما يمشي فإنه لا يرجف، وهذا هو سبب مشيه الدائم، كي لا يراه أحد وهو يرجف».

«إنه في هذا يشبه الجواد إبن السنة أو حتى إبن السنتين» علّق أبي وتابع: «الذي يرجف ويرتعد بكل بدنه من التوتر، عند الاستعداد للانطلاق في السباق أول مرة، وفي هذه الحالة يكون همّ الجوكي تهدئة الجواد ما أمكن. لاحقاً يزول التوتر طبعاً، أو يضعون للجواد غمامة. من منكم يعرف مرادفاً لتهدئة جواد متوتر؟».

«هراء!» قالت أمي وتابعت: «معكم في السيارة كان يمكن لزومر هذا أن يرجف براحته. فهذا لن يزعج أحداً، فليرجف حتى بيته!».

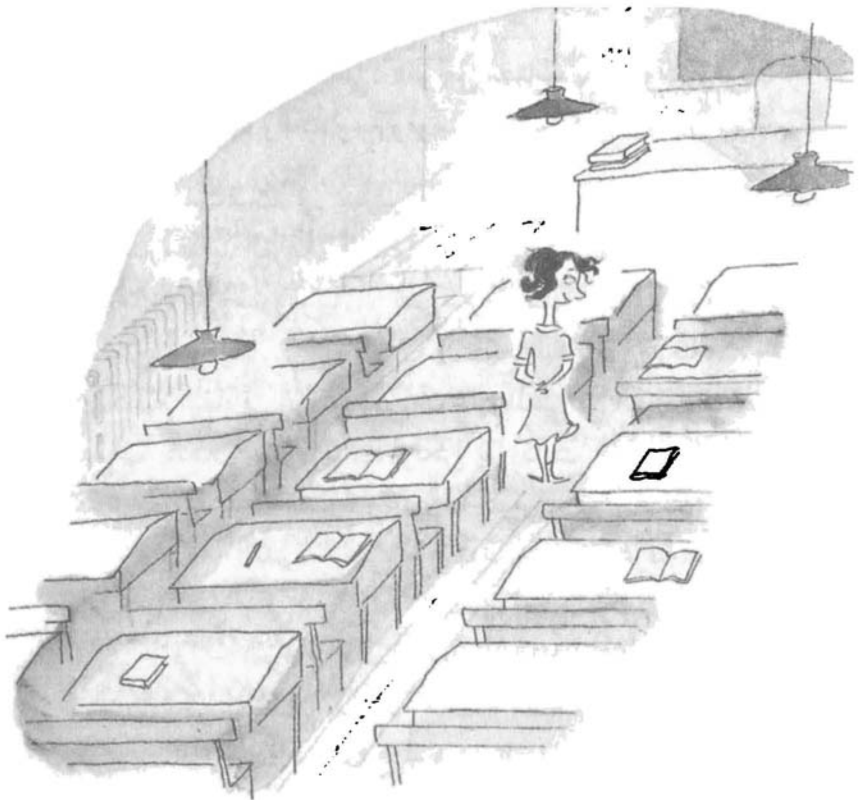
فشرح أبي قائلاً: «أخشى أن السيد زومر لم يركب معنا في السيارة لأني استخدمت في كلامي تعبيراً نمطياً. قلت: «ستجلب الموت لنفسك!» وأنا لا أجد تفسيراً لحصول هذا معي أنا. أنا موقن من أنه كان سيركب لو أني استخدمت تعبيراً أقل استهلاكاً، مثل...».

«كلام فارغ» علقت أمي وأضافت: «بل ما كان سيركب لأنه مصاب بالكلاوستروفوبيا، أي لأنه لايستطيع الجلوس في سيارة مغلقة، مثلما لايستطيع الجلوس في غرفة مغلقة. اسأل الدكتور لوخترهاند! حالما يتواجد في مكان مغلق - سواءً سيارة أو غرفة - حتى تأتيه الأعراض».

فسألتُ: «ماهي الأعراض؟».

فأجاب أخي الذي يكبرني بخمس سنوات والذي قرأ «حكايات الأخوين غريم» كلها: «قد تشبه حالة السيد زومر حالة العدّاء السريع في حكاية «ستة يغزون الدنيا» الذي يستطيع في يوم واحد أن يركض حول الدنيا كلها. وعندما يصل إلى بيته يضطر ألى ربط إحدى ساقيه عالياً برباط جلدي، وإلا فإنه لن يستطيع التوقف».

«وهذا أيضاً محتمل»، قال أبي: «ربما كان لدى السيد زومر ساق



زائدة ما يضطره إلى المشي الدائم. يفترض بنا أن نرجو من الدكتور لوخترهاند ربط إحدى سيقان السيد زومر غالياً».

«كلام فارغ» قالت أمي: «الرجل مصاب بالكلاوستروفوبيا، ولا شيء آخر سواها، والكلاوستروفوبيا لا علاج لها».

عندما استلقيت في سريري جالت في رأسي طويلاً كلمة كلاوستروفوبيا الغريبة. لفظتُها عدة مرات بصوت عالٍ كي لا أنساها: «كلاوستروفوبيا... كلاوستروفوبيا... السيد زومر مصاب بالكلاوستروفوبيا... أي أنه لا يستطيع البقاء في غرفته... وكونه لايستطيع البقاء في غرفته، يعني أن عليه المشي في العراء دائماً... لأنه مصاب بالكلاوستروفوبيا... ولكن إذا كانت كلمة كلاوستروفوبيا تطابق معنى «عدم –القدرة –على –الجلوس –في –غرفته» وإذا كانت عبارة «عدم – القدرة – على – الجلوس – في – غرفته» تطابق معنى «عليه – المشي – في – العراء – دائماً»، عندها تكون عبارة «عليه – المشي – في – العراء – دائماً» مطابقة تماماً لـ «كلاوستروفوبيا»... وعندها يمكن للإنسان بدلاً من الكلمة الصعبة «كلاوستروفوبيا» أن يقول ببساطة < عليه – المشي – في – العراء – دائماً >... لكن هذا يعني أن أمي عندما تقول:< يجب على السيد زومر المشي في العراء دائماً، لأنه مصاب بالكلاوستروفوبيا> بوسعها أن تقول بالدقة نفسها ««يجب على السيد زومر المشي في العراء دائماً، لأن عليه أن يمشي في العراء»...».

وعندها أحسست بدوخة في رأسي، وحاولت نسيان الكلمة الجديدة وكل ما يتعلق بها بسرعة. وتخيلت عوضاً عن ذلك أن السيد زومر ليس مصاباً بشيء إطلاقاً وأنه يتجول دائماً في العراء، لأنه يُسَرُّ ببساطة بالتجول والمشي في العراء، تماماً مثل سروري بتسلق الأشجار.

فلمتعته الخاصة وسروره يتجول السيد زومر في الهواء الطلق، هكذا هو الأمر وليس غير ذلك. وكل الشروحات المربكة والكلمات اللاتينية التي خطرت في بال الكبار أثناء العشاء كلام فارغ مثل مسألة ربط الساق عالياً بحزام جلدي من حكاية «ستة يغزون الدنيا»!

لكنني تذكرت بعد فترة وجه السيد زومر، الذي رأيته عبر زجاج السيارة، تذكرت الوجه المغمور بماء المطر والفم نصف المفتوح والعينين الواسعتين المملوءتين بالهول وفكرت: ما هكذا ينظر المسرور، والإنسان الذي يمارس شيئاً لمتعته وسروره، لايمكن أن يكون له هكذا وجه. هذا وجه إنسان خائف، أو وجه إنسان يشعر بظمأ، بظمأ رهيب تحت المطر، لدرجة أنه قادر على شرب البحيرة كلها. فشعرت بالدوخة ثانية، وحاولت بكل طاقتي نسيان وجه السيد زومر، غير أني كلما كثفت المحاولة، ازدادت صورته وضوحاً أمامي: كنت أرى كل تجعيدة وكل غضن، كل قطرة مطر وكل قطرة عرق، وأبسط رجفة في شفتيه، اللتين بدتا على وشك قول شيء. وتوضح الهمس وعلا، وفهمت صوت السيد زومر، الذي قال مبتهلاً: «إذن دعوني لشأني بسلام! دعوني أخيراً إذن بسلام...!».

وعندها فحسب تمكنت من سحب أفكاري منه، وقد ساعدني صوته في ذلك. اختفى الوجه، وسرعان ما نمت.

في صفي في المدرسة كانت هناك فتاة اسمها كارولينا كوكِلمَن. لها عينان سوداوان وحاجبان سوداوان وشعر بني داكن مع غرة على يمين جبينها. على قفا عنقها وفي التجويف الصغير بين شحمة أذنها وجيدها انتشر زغب دقيق على بشرتها، يلمع تحت الشمس ويرتعش برفق أحياناً مع نسمات الريح. عندما تضحك بصوتها ذي البحة الرائعة كانت ترفع جيدها وتُميل رأسها إلى الوراء ويشرق وجهها طافحاً بالسرور، وتكاد تغمض عينيها أثناء ذلك. كنت لا أشبع من النظر إلى هذا الوجه، وأتملاه ما وسعني وكلما سنحت فرصة لذلك، سواء أثناء الدرس أو خلال الاستراحة. إلا أني كنت أفعلها خفية، بحيث لا أثير انتباه أحد، لاسيما كارولينا نفسها، إذ كنت خجولاً جداً.

أما في أحلامي فقد كنت أقل خجلاً، إذ كنت أمسك بيدها وأقودها إلى الغابة وأتسلق معها الأشجار. وأنا جالس وإياها على أحد الأغصان كنت أنظر في وجهها مباشرة وعن قرب وأحكي لها قصصاً. وكانت تضحك مُميلةً رأسها إلى الوراء وهي تغمض عينيها وتسمح لي بأن أنفخ بنعومة وراء أذنها وعلى جيدها، حيث ينتشر الزغب. عدة مرات في الأسبوع كانت تأتيني مثل هذه الأحلام. وكانت أحلاماً جميلة - لا شكوى لدي إطلاقاً -، لكنها كانت أحلاماً لا أكثر، وهي مثل الأحلام كافة لا تُشبع النفس. كنت مستعداً لتقديم أي شيء في سبيل أن تكون

كارولينا معي فعلياً ولو مرة واحدة، لأنفخ على عنقها أو أي مكان آخرلا فرق... وللأسف لم يكن هناك أمل بذلك إطلاقاً، فكارولينا مثل معظم التلاميذ الآخرين كانت تقيم في «فوق البحيرة»، وأنا الوحيد في «تحت البحيرة». فدربا مدرستنا كانا يفترقان خارج بوابة المدرسة تقريباً، نزولاً من جبل المدرسة الصغير وعبر المروج باتجاه الغابة، وقبل أن يغيبا في الغابة يكونان قد تباعدا جداً، بحيث لا أعود أميز كارولينا من بقية التلاميذ. ضحكتها فحسب كانت تتناهى إلي أحياناً. وفي حالة جوية بعينها مع هبوب ريح الجنوب كان وقع هذه الضحكة الجَشّاء يتردد من البعيد عبر الحقول ويرافقني حتى إلى بيتي. ولكن متى تهب ريح الجنوب في منطقتنا!

ذات يوم، وكان السبت، حدثت معجزة. خلال الاستراحة جاءت كارولينا راكضة باتجاهي، توقفت قربي مباشرة وقالت: «أنت تمشي دائماً وحدك إلى «تحت البحيرة» أليس كذلك؟».

«نعم »، أجبتها

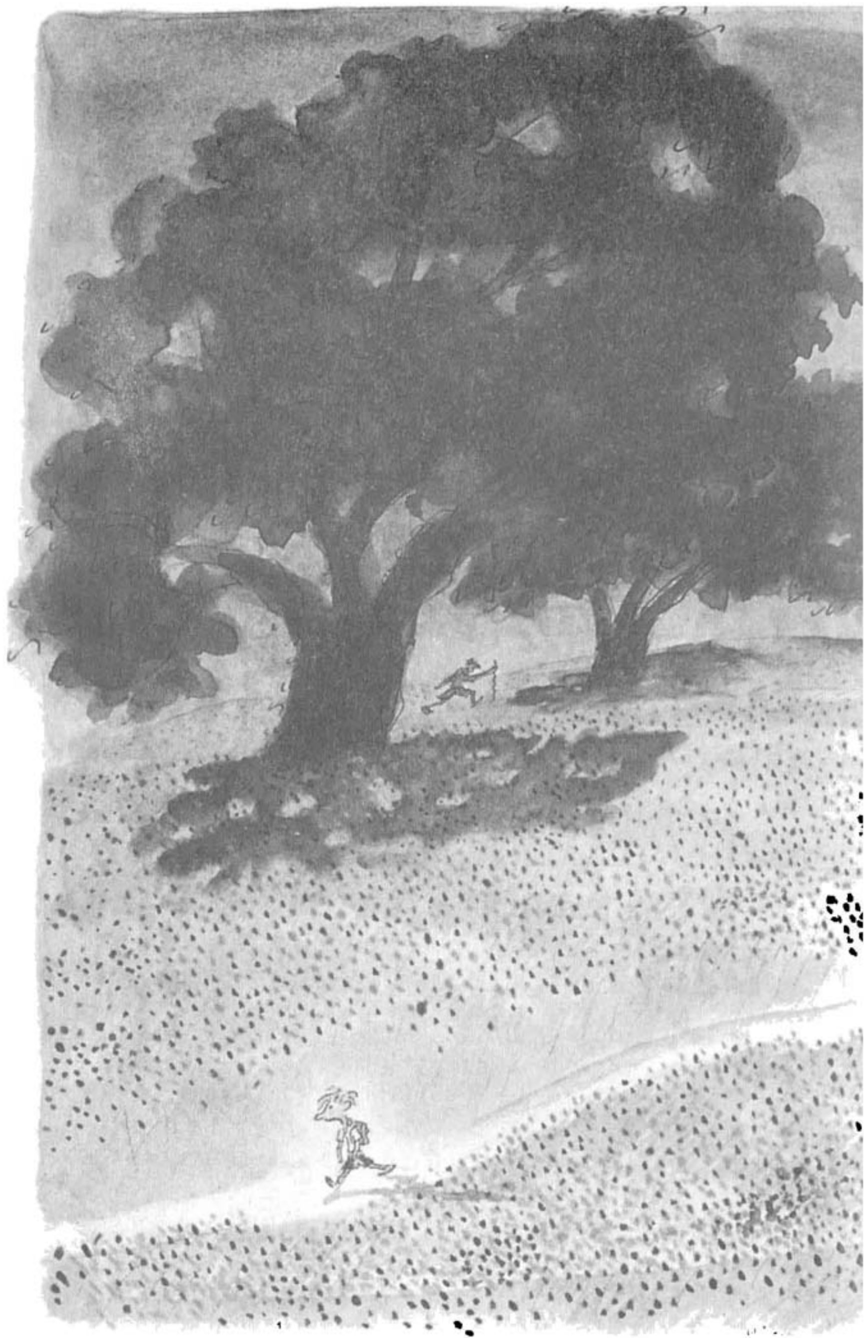
«اسمع، يوم الإثنين سأرافقك..».

ثم قالت كلاماً كثيراً شارحة السبب، تحدثت عن صديقة أمها، التي تسكن في «تحت البحيرة»، وأن أمها ستأتي لتأخذها من بيت الصديقة ثم ستذهب مع أمها أو مع أمها والصديقة... - لم أعد أعرف، نسيت، وأظن أني نسيت الشرح فوراً، حتى وهي تقوله، إذ فوجئت بطريقة شلتني منذ سماعي جملة: «يوم الإثنين سأرافقك!»، بحيث لم يعد في وسعي سماع أي شيء آخر أو لم أرد سماع غير هذه الجملة الواحدة، الجملة الرائعة: «يوم الإثنين سأرافقك!».

طوال بقية النهار، بل طوال نهاية الأسبوع ووقع هذه الجملة الرائع







لايفارق أذني – آه، ماذا أقول! –، بل كان أروع من كل شيء قرأته عند الأخوين غريم، أروع من وعد الأميرة في «الملك الضفدع»: «سوف تأكل من صحني الصغير، سأسمح لك بالنوم في سريري الصغير»، وأخذت أعد الأيام بنفاد صبر أكبر من زَمْبَخْرَج: «اليوم أخبز، غداً أشوي وبعد غد أحضر طفل الملكة!» بـدوت لنفسي مثل هانس المحظوظ والأخ الطروب وملك جبل الذهب في شخص واحد... «يوم الإثنين سأرافقك!».

أجريت تحضيراتي. تجولت يومي السبت والأحد في الغابة لأختار الدرب المناسب. إذ كان مؤكداً منذ البداية أني وكارولينا لن نأخذ الطريق العادي. عليها التعرف على أكثر دروبي سرية وسأريها أجمل مايستحق المشاهدة. لابد من أن يشحب درب «فوق البحيرة» في ذاكرتها بعد أن أطلعها على الروائع الكامنة في دربي، على طريقنا إلى «تحت البحيرة».

بعد موازنة طويلة حسمت أمري واخترت الدرب الذي ينعطف يميناً بعد طرف الغابة بقليل ويمر من معبر ضيق إلى محمية تنوب يافع ومنها إلى أرض طحلبية فإلى غابة نفضية قبل أن ينحدر بشدة نحو البحيرة. هذا الدرب كان مرصعاً بما لايقل عن ست روائع، سأريها لكارولينا وأرفقها بشروحاتي الخبيرة بالموضوع. وهي إذا ابتغينا التفصيل:

أ – كوخ محولات تابع لمحطة الطاقة الكهربائية، يقع على جانب الطريق تقريباً، ويصدر صوت طنين مستمر. وقد عُلقت على بابه لوحة صفراء اللون رُسم عليها رمز البرق مع تحذير: «انتبه توتر عالي – خطر الموت!».

ب – مجموعة من سبع شجيرات توت عليق أحمر ذات ثمر ناضج.

ج – معلف حشيش أخضر مجفف للوعول – فارغ حالياً من العلف، ولكن فيه حجر ملح كبير للحس.

د - شجرة يُحكى عنها أن نازياً عتيقاً قد شنق نفسه عليها بعد الحرب.

ه - جبل نمل بارتفاع متر وقطرِ متر ونصف، وأخيراً كخاتمة وذروة:

و - شجرة زان عتيقة رائعة، فكرت بتسلقها مع كارولينا، للاستمتاع بإطلالة على البحيرة لامثيل لها، من شعبة أغصانٍ متينة على ارتفاع عشرة أمتار، حيث سأميل عليها وأنفخ على جيدها.



سرقتُ من خزانة المطبخ قطع كعك ومن البراد كأس لبن ومن القبو تفاحتين وقنينة عصير التوت. وضعت هذه الأشياء كلها في علبة أحذية، وأودعتها بعد ظهر يوم الأحد على شعبة أغصان الزان، مؤونةً لجلستنا. وفي سريري مساء فكرت بالقصص التي سأسلّي بها كارولينا وأجعلها تضحك. واحدة للطريق والثانية لاستراحتنا على شجرة الزان. أضأت النور ثانية، فتشت في درج منضدة السرير عن مفك براغ صغير ووضعته في شنطة المدرسة لأهديها إياه في الختام باعتباره أثمن ما أملك. بعد أن عدت إلى سريري راجعت القصتين، وراجعت بأدق التفاصيل مسار نهار الغد، راجعت عدة مرات محطات المشوار من أ إلى و، ومكان ولحظة تسليمها مفك البراغي، راجعت محتوى علبة الأحذية الموجودة الآن هناك في الغابة على شعبة أغصان الزان بانتظارنا – لم يسبق لموعد أن تم تحضيره بمثل هذه الدقة! –، ثم تركت نفسي للنوم ترافقني كلماتها الحلوة: «يوم الإثنين سأرافقك... يوم الإثنين سأرافقك..».

كان الإثنين نهاراً جميلاً لا شائبة فيه. الشمس تسطع باعتدال والسماء صافية زرقاء كماء البحيرة، في الغابة تغرد الشحارير، فيما نقار الخشب يطرق الشجر وصدى طرقاته يتردد في الجوار. الآن فقط، على الطريق إلى المدرسة خطر في بالي أني أثناء تحضيراتي للموعد لم أفكر نهائياً بما سنفعله أنا وكارولينا، في حال كان الطقس رديئاً. والمشوار من أ إلى وسيكون كارثة إذا هطل المطر، بشجيرات التوت المشعثة، وجبل النمل المخبوص، والمنطقة الطحلبية الزلقة، وشجرة الزان التي لن يمكن تسلقها بسبب ملوستها، وعلبة المؤونة التي إما أن يكون الهواء قد رماها أو تَنَخّت من المطر. سرحت بلذة مع هذه التصورات الكارثية، التي وفرت لي حلاوة هموم فائضة ومنحتني إحساساً جلياً بالانتصار لكوني محظوظاً: ليس فقط لكوني لم أهتم بأمر الطقس على الإطلاق، لا، وإنما لأن الطقس اهتم بي شخصياً! لايكفي أني اليوم سأرافق كارولينا

كوكلمَن، لا، بل حصلت على أجمل نهار في السنة كعلاوة! كنت إبنَ حظ. الرب شخصياً يشملني برعايته. لكنني أرجو ألاّ أبالغ وأنا في حالة النعمة هذه! أرجو ألاّ أرتكب أي خطأ الآن، نتيجة غرور أو تفاخر، مثلما يحدث دائماً للأبطال في الحكايات، فيهدمون السعادة، التي كانوا واثقين من امتلاكها!

أسرعت في مشيتي. لا يجوز بأي حال من الأحوال أن أصل إلى المدرسة متأخراً. خلال الدرس تصرفت بتهذيب، كما لم يسبق لي قط، كي لا يجد المعلم مبرراً لإبقائي في الصف بعد الدوام. كنت صالحاً مثل نعجة ويقظاً في الوقت نفسه، مستقيماً كمؤمن ومبالغَ الطموحِ كتلميذ نموذجي. لم ألتفت نحو كارولينا ولا حتى مرة واحدة، أجبرتَ نفسي على ذلك، على ألا أفعلها، ليس بعد، كدت أكون متطيراً، وكأني بنظرة مبكرة عن أوانها سأفقدها...

عندما انتهى الدوام، تبين أن على البنات البقاء ساعة إضافية، ما عدت أذكر السبب، لدرس أشغال يدوية أو لسبب آخر. على أية حال صُرِفَ الصبيان فقط. لم آخذ هذا الحدث العارض بشكل مأساوي - بالعكس. إذ بدا لي بمثابة امتحان إضافي عليّ أن أجتازه، وسوف أجتازه، لأنه سيوصلني إلى اللقاء المنشود بكارولينا، وسيمنحني فوق ذلك قدسية ماهو خاص: سنكون قد انتظرنا واحدنا الآخر طوال ساعة!

انتظرتها عند مفترق الدربين إلى «فوق البحيرة» وإلى «تحت البحيرة»، على مسافة عشرين متراً من بوابة المدرسة لا أكثر. في هذه البقعة تنتصب صخرة من الأرض، وحيدة مثل لقيط. إنها السطح الأملس لكتلة صخرية ضخمة. في منتصف الصخرة هناك تجويف له شكل حافر. يتداول الناس في ما بينهم أنه ناتج عن حافر الشيطان،

الذي خبط قدمه هناك في لحظة غضب، لأن الفلاحين في الجوار، في غابر الزمن قد بنوا كنيسة. جلست على هذه الصخرة وأمضيت الوقت في استخدام أصابع يدي لتفريغ بركة ماء المطر الذي كان قد تجمع في تجويف الحافر. كنت أشعر بدفء أشعة الشمس في ظهري، والسماء مازالت صافية زرقاء بلون مياه البحيرة. جلست منتظراً وانا أفرغ الماء ولا أفكر بشيء، شاعراً في داخلي بسعادة لا توصف.

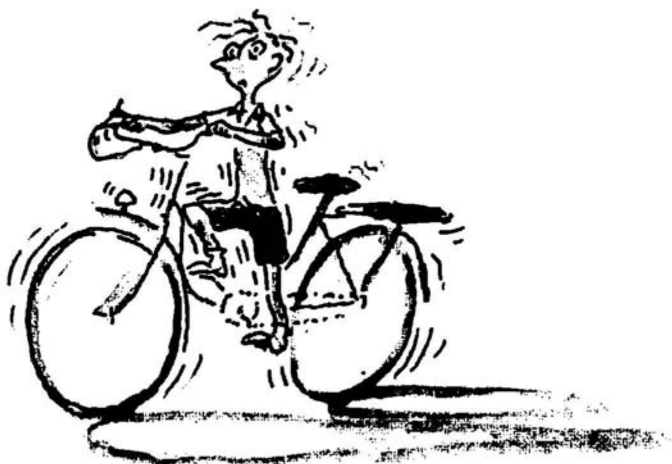
و أخيراً خرجت البنات. ركض سرب كبير منهن متجاوزاً إياي، ثم اقتربت هي، آخرهن. نهضتُ واقفاً. توجهتْ نحوي وخصلِ شعرها الأسود تهتز كالنوابض وغرة جبينها تتراقص صعوداً ونزولاً وكانت ترتدي ثوباً بلون الليمون. مددت يدي إليها، وقفتْ أمامي، قريبة مني جداً، كما في الاستراحة قبل يومين، أردت أن أمسك يدها، وكان الأحب إلى قلبي أن أعانقها فوراً وأقبلها على منتصف وجهها. قالت: «هل كنت تنتظرني؟».

«نعم» قلتُ.

«اسمع، اليوم لن أستطيع أن أرافقك. صديقة أمي مريضة، وأمي لن تذهب إليها، وقالت أمي إن...».

وتلا ذلك سيل من التفسيرات، التي لم أعد أسمعها، ناهيك عن تذكرها، إذ أصابني فجأة طرش غريب وارتخت مفاصل ساقي، والشيء الوحيد الذي مازلت أذكره هو أنها بعد إنهاء كلامها استدارت فجأة ومشت بلون الليمون باتجاه «فوق البحيرة»، بسرعة كي تلحق بسرب البنات.

هبطتُ جبل المدرسة إلى البيت. يبدو أني مشيت ببطء شديد، فعندما بلغت طرف الغابة والتفت آلياً نحو درب «فوق البحيرة» فإني لم أرَ



أحداً هناك. بقيت واقفاً، ألقيت نظرة إلى الوراء إلى الخط المتعرج لجبل المدرسة الذي نزلت عليه. كانت أشعة الشمس متمددة باسترخاء على المروج دون أية نسمة تداعب الحشائش. وكأن المنظر قد تجمد.

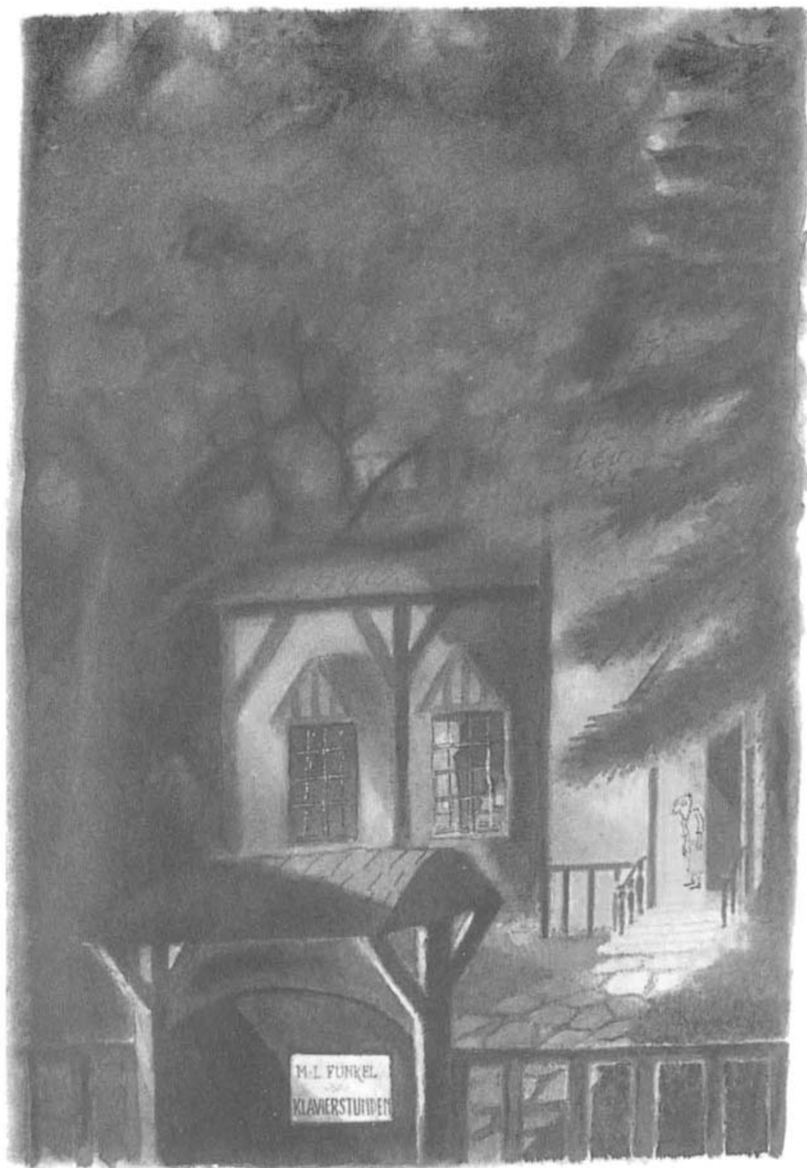
ثم رأيت نقطة صغيرة تتحرك. نقطة على أقصى يسار طرف الغابة تتنقل باستمرار باتجاه اليمين على طول طرف الغابة، ثم صعدت جبل المدرسة وعندما بلغت قمته متابعةً خط الأفق، مالت نحو الجنوب. وعلى خلفية السماء الزرقاء اتخذت النقطة الصغيرة مثل نملة شكل إنسان بوضوح، يمشي هناك في الأعلى، وتعرفت أنا على سيقان السيد زومر الثلاث. كانت هذه السيقان تتقدم بخطوات صغيرة على نحو دقيق منتظم مثل مسننات الساعة، وتتحرك ببطء وبسرعة في الوقت نفسه مثل عقرب الساعة الكبير عالياً على خط الأفق.

بعد سنة تعلمت ركوب الدراجة. لم يكن ذلك مبكراً قطعاً، إذ بلغ طولي ١،٣٥ م ووزني ٣٢ كغ وقياس حذائي ٣٢،٥. إلا أن ركوب الدراجة لم يستهوني مطلقاً. طريقة التحرك إلى الأمام هذه بتمايلٍ إلى الجهتين دونما استناد على أي شيء سوى دولابين رفيعين، بدت ليَ غير آمنة على الإطلاق، بل خطيرة أيضاً. إذ لم يكن بوسع أحد أن يشرح لي سبب سقوط الدراجة فوراً في حال التوقف دون أن تستند إلى جدار أو يمسكها أحد، لكنها لا يجوز أن تسقط عندما يقودها إنسان وزنه ٣٢ كغ من دون جدار يسندها أو شخص يمسكها. كما كنت أجهل تماماً حينذاك القوانين الطبيعية التي بنيت عليها هذه الظاهرة العجيبة، أي قانون الدوران وخاصة قانون التوازن الآلي بدافع الدوران، ومازلت حتى اليوم لم أستوعبها تماماً، حتى أن العبارة الإصطلاحية «قانون التوازن الآلي بدافع الدوران» أجدها فظيعة ومربكة لدرجة أن الموضع المعلوم إياه في قفا رأسي يبدأ بالتنميل والدق.

يحتمل أني ما كنت لأتعلم ركوب الدراجة نهائياً، لو لم يصبح ضرورة ملحة، وذلك عندما بدأت أتلقى دروس تعليم العزف على البيانو. و لم يكن هذا ممكناً إلا عند معلمة البيانو، التي تسكن في الطرف الآخرمن قرية «فوق البحيرة»، والذهاب إليها مشياً يستغرق ما يزيد عن ساعة، أما بالدراجة، وبناء على حسابات أخي، فثلاث دقائق ونصف.

ومعلمة البيانو هذه، التي تعلمت أمي العزف على يديها وكذلك أختي وأخي وكل من يحسن التعامل مع الملامس في منطقتنا - من أرغن الكنيسة إلى أكورديون ريتا شتانغلماير -، اسمها ماري - لويزِة فونكِل، وبالأحرى الآنسة ماري -لويزة فونكل. وهي تولِي أكبر الأهميةَ للقبَ «الآنسة»، علماً بأني طوال حياتي لم أرَ كائناً أنثوياً أقل أنوثة من ماري -لويزة فونكل. كانت عجوزاً مسنة، شعرها أبيض، محنية الظهر، لها شارب أسود صغير فوق شفتها العليا، وصدرها ممسوح. أعرف ذلك لأني رأيتها مرة بقميصها الداخلي، عندما سهوتُ ووصلت إلى الدرس قبل موعده بساعة، و لم تكن قد أنهت قيلولة الظهر بعد. عندها وقفَتْ في باب فيلتها القديمة الهائلة الحجم، وهي ترتدي تنورة فقط وقميص نوم، ولكن ليس من القمصان الحريرية الناعمة الفضفاضة التي تحب السيدات ارتداءها، وإنما من تلك الفانللا التي تشد على الجسم كاشفة الإبطين، كالتي نلبسها نحن الصبيانَ في ساعة الرياضة البدنية. ومن قميص الفانللا هذا تدلى ذراعاها العجفاوان وانتصب عنقها الجلدي الرفيع، ومَا تحته كان مسطحاً وضامراً مثل صدر دجاجة. ومع ذلك فإنها تصر- كما ذكرتُ - على «الآنسة» قبل «فونكل». والسبب حسبما شرحت عدة مرات دون أن يسألها أحد عن الأمر: كي لا يظن الرجال أنها كانت متزوجة، في حين أنها مازالت عزباء صالحة للزواج. لم يكن هذا التفسير طبعاً سوى هراء صريح، لأن الرجل، الذي تبغي ماري -لويزة فونكل العجوز الشمطاءِ ذات الشوارب والتي ينقصها ثديان أن تتزوجه، غير متوفر في الدنيا كلها.

والحقيقة الكامنة وراء استخدامها لقب «الآنسة فونكل» هي أنه لايجوز لها استخدام لقب «السيدة فونكل»، حتى لو أرادت ذلك، لأن السيدة فونكل كانت موجودة، ولربما يُحَبّذ القول: لا زالت موجودة. فالآنسة فونكل لديها أم. وإذا كنتُ قد قلت سابقاً إن الآنسة


M·L FUNKEL
KLAVIERSTUNDEN

فونكل عجوز مسنة، فلأني لا أعرف مطلقاً كيف سأصف السيدة فونكل: من العصر الحجري، من المستحاثات، عجوز طاعنة في السن!... أظن أن عمرها كان كحد أدنى مئة سنة. كانت مسنة إلى الحد الذي يفرض على المرء أن يقول إنها بمعنى ضيق ومحدد جداً لازالت موجودة، مثل قطعة أثاث، أو مثل فراشة محنطة يعلوها الغبار، أو مثل فاز عتيق رقيق هش، وليس كإنسان من لحم ودم. إنها لم تتحرك، و لم تتكلم، ولا أعرف درجة سماعها أو بصرها، لم أرها سوى جالسة. وكانت تجلس في الزاوية الخلفية من غرفة البيانو، في أريكة ذات مسندي ذراعين وظهرعال، مزودة بمتكئين للرأس على طرفي الظَهر العالي، تحت ساعة بندولية، صامتةً ساكنةً مهملة - وكانت تجلس صيفاً مرتدية ثوباً أبيض من التول، وشتاءً في ثوب من المخمل الأسود يظهر رأسها منه كرأس سلحفاة. وفي حالات نادرة فحسب، في حال أدى أحد التلاميذ فرائضه بصورة لافتة، وحفظ درسه جيداً وأدى إتودات تشِرْني دون أخطاء، اعتادت الآنسة فرونكل في نهاية الساعة أن تمشي حتى منتصف الغرفة وتصيح باتجاه الأريكة: «ما!» - كانت تنادي أمها «ما» - «ما! أعط الولد قطعة بسكويت، لقد عزف جيداً!» وعندها كان على المكافأ أن يعبر الغرفة إلى الزاوية الخلفية وأن يقف قرب الأريكة ويمد يده إلى المومياء العجوز، فتكرر الآنسة فرونكل صيحتها: «أعط الولد قطعة بسكويت، ما!»، وعندها ببطء لايوصف تخرج من ثوب التول الأبيض أو من ثوب المخمل الأسود يدٌ عجوز مزرقة مرتجفة وناعمة كالزجاج. تتحرك دون أن تتبعها العينان أو رأس السلحفاة، إلى اليمين متجاوزة مسند الذراع إلى منضدة صغيرة عليها صحفة مملوءة بالبسكويت، فتتناول واحدة، غالباً ما تكون مربعة ومحشوة بكريم أبيض، وتتحرك راجعة ببطء من فوق المنضدة ومسند الذراع وفوق حِجرها إلى يد الولد الممدودة. تضعها فيها بأصابعها الهزيلة وكأنها



تضع قطعة ذهب. أحياناً وللحظة قصيرة كانت تتلامس يد الولد مع رؤوس أصابع العجوز، فيرتعش الولد حتى العظم، إذ كان يتوقع تلامساً مع شيء قاس، وبارد كالسمك، فإذا به دافيء بل حار وناعم بصورة لا تصدق، وخفيف عابر زائل، لكنه رغم ذلك تلامسٌ يولّد رعشة، كما يحدث عندما يفر عصفور من داخل يدك. فيتلجلج الولد قائلاً: «شكراً سيدة فونكل» ويعمل على أن يغادر الغرفة، بل البيت الكئيب كله، إلى الخارج، إلى الهواء الطلق، إلى الشمس.

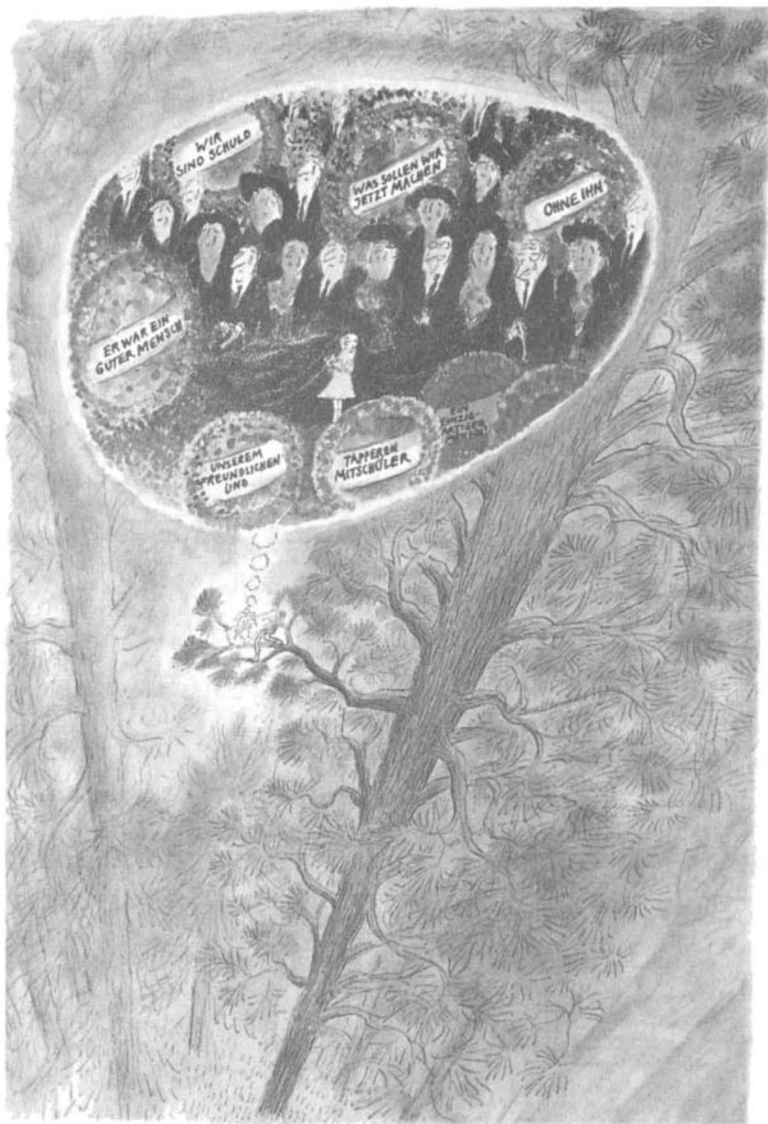
ما عدت أذكر كم من الوقت استغرق تعلمي فن سواقة الدراجة المخيف. كل ما أذكره هو أني تعلمته وحدي، بمزيج من الكراهية ومن الاجتهاد الدؤوب، على دراجة أمي، على درب مهجور ومنحدر قليلاً في الغابة، كي لا يراني أحد. وشجيرات هذا الدرب كانت منتصبة على الجانبين، كثيفة وطويلة، بحيث كان يمكنني السقوط كل مرة من دون أذى، إما على الأوراق الكثيفة أو على الأرض الطرية. وفي إحدى المرات، بعد كثير من المحاولات الفاشلة، وبصورة مفاجئة لقطتُ السر، وتحركت رغم تحفظاتي العلمية وشكوكي العميقة بحرية على الدولابين: وياله من شعور ساحر بالفخر! فقمت في فناء بيتنا وعلى المرج المجاور له بحضور أفراد عائلتي بجولة اختبارية، حصدت منها تصفيق أبويّ وصفير أخي وأختي. وعقبها مباشرة أرشدني أخي إلى أهم قواعد السواقة في الشوارع، وأهمها السواقة دائماً على اليمين، مُعرِّفاً جهة اليمين بالجهة التي ثُبِّت فيها الكابح اليدوي على مقود الدراجة[1]،

١- ما زلت حتى اليوم أتقيد بهذا التعريف سهل الحفظ، إذا تعرضت للحظة ارتباك ولم أعد أعرف يميني من يساري. عندها أتخيل ببساطة مقود دراجة وأحرك في عقلي الكابح اليدوي فأستدل فوراً على اتجاه اليمين. والدراجات المزودة بكابحين يدويين على طرفي المقود - والأسوأ من ذلك - على الطرف الأيسر فقط، لا أركبها بتاتاً.



ومنذئذ بتُ أسوق الدراجة وحدي إلى بيت الآنسة فونكل، مرة في الأسبوع لحضور درس البيانو، بعد ظهر يوم الأربعاء من الساعة الثالثة حتى الرابعة. أما الثلاث دقائق ونصف التي حسبها أخي في البداية فبقيت أبعد ما يكون عني. فأخي كان يكبرني بخمس سنوات ويملك دراجة بمقود سباق وجنزير بثلاث سرعات. في حين كنت أسوق وقوفاً دراجة أمي الكبيرة جداً بالنسبة إلي. حتى ولو أنزلتُ السرجَ إلى الحد الأدنى، فلن أتمكن من الجلوس عليه وتحريك الدواستين في وقت واحد، بل إما أو، وهي حسبما تبين لي سواقة غير عملية إطلاقاً ومتعبة ومضحكة جداً: في حالة الوقوف كنت أدفع الدواستين بقوة كي تسرع الدراجة، وأقذف نفسي أثناء ذلك لأجلس على السرج وأثبت ما أمكن، إما بساقين مرفوعتين أو مفرشخاً، حتى تخف سرعة العجلتين فأعاود تشغيل الدواستين لاستعادة السرعة، وهكذا دواليك. بهذه التقنية المتناوبة دوساً وجلوساً صرت أقطع المسافة من بيتنا وبموازاة البحيرة وعبر «فوق البحيرة» حتى فيللا الآنسة فونكل في عشرين دقيقة تقريباً، إذا – نعم، إذا لم تعترضني حوادث طارئة! وما أكثر الحوادث الطارئة. كان وضعي كالتالي: كان بإمكاني

أن أسوق وأوجه وأكبح وأركب وأترجل إلخ.. ولكني لم أكن قادراً على تجاوز غيري أو ترك غيري ليتجاوزني أو أن أواجه أحداً من الاتجاه المعاكس. فما أن أسمع صوت محرك سيارة يقترب من ورائي أو قبالتي حتى أفرمل وأتوقف إلى أن تعبر السيارة، وما أن يظهر راكبو دراجات آخرون قبالتي حتى أتوقف منتظراً عبورهم. وعندما أريد تجاوز شخصٍ سائر، كنت أترجل وأركض دافعاً دراجتي إلى جانبي، ولا أركب حتى أكون قد خلفته ورائي بمسافة. كنت بحاجة إلى طريق خاوٍ تماماً أمامي وخلفي قبل أن أشغل الدواستين، وعلى ألا يراقبني أحد أثناءها. إضافة إلى ذلك كان هناك كلب السيدة الدكتورة هارتْلاوب في منتصف


WIR SIND SCHULD
WAS SOLLEN WIR JETZT MACHEN
OHNE IHN
ER WAR EIN GUTER MENSCH
UNSEREM FREUNDLICHEN UND
TAPFEREN MITSCHÜLER

الطريق بين «تحت البحيرة» و«فوق البحيرة»، كلب صغير حقير من نوع تيرية، غالباً ما يسرح في الطريق وحده دون قيد ويهاجم نابحاً كل ما له دواليب. ولا يمكن تجنب هجماته، إلا بجر الدراجة على جانب الطريق ثم إيقافها على سور الحديقة بشكل آمن، والجلوس على السرج متمسكاً بعارضة السور ورافعاً ساقيّ، منتظراً حتى تصفر له السيدة الدكتورة هارتلاوب كي يدخل. فلا عجب إذن في مثل هذه الظروف، إن لم تكفني عشرون دقيقة لقطع المسافة حتى الطرف الأقصى من «فوق البحيرة»، فعودت نفسي من باب الاحتياط، على أن أنطلق من بيتنا في الثانية والنصف كي أصل في التوقيت المناسب تقريباً لعند الآنسة فونكل.

عندما حكيت قبل حين عن أن الآنسة فونكل كانت تأمر أمها أحياناً بإعطاء بسكويت لبعض التلاميذ، أضفت بشيء من الحذر، أن الأمر لم يكن يحدث إلا في حالات نادرة. فالأمر لم يكن معتاداً مطلقاً، والآنسة فونكل كانت معلمة صارمة من الصعب إرضاؤها. فإذا تعامل التلميذ مع وظائفه باستخفاف أو أصدر صوتاً خاطئاً تلو الآخر عند القراءة من النوتة، تبدأ بهز رأسها على نحو تهديدي ويحمر وجهها كله وتخز التلميذ بكوعها في خاصرته، ثم تفرقع بأصابعها في الهواء بغضب وتصرخ فجأة مطلقة أقذع الشتائم. وقد عشت بنفسي أسوأ مشهد من هذا النوع بعد سنة تقريباً من بداية دروسي عندها، وتعرضت وقتها إلى هزة عنيفة، لدرجة أني أرتعش حتى اليوم كلما تذكرتها.

كنت قد وصلت متأخراً جداً، نحو عشر دقائق. فقد مَسمَرني كلب السيدة الدكتورة هارتلاوب على السور ثم واجهتُ سيارتين وكان علي تجاوز أربعة مشاة. عندما وصلت إلى بيت الآنسة فونكل وجدتها تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بوجه أحمر وتفرقع بأصابعها في الهواء.

«أتعرف كم الوقت الآن؟» سألتني بصوت كالقرقرة. لم أجب بشيء، إذ أني لم أكن أملك ساعة حينذاك. حصلت على أول ساعة يد في عيد ميلادي الثالث عشر.

«انظرِ هناك!» صاحت وفرقعت بأصابعها باتجاه زاوية الغرفة، حيث تَتكُ ساعة البندول فوق أمها الجالسة هناك بسكون. «ستصبح تواً الثالثَة والربع! أين كنت تصيع ثانية؟».

بدأت أتلعثم بكلام عن كلب السيدة الدكتورة هارتلاوب، لكنها لم تدعني أنهي كلامي، بل قاطعتني قائلة: «كلب! طبعاً طبعاً، كنت تلعب مع الكلب! بل كنت تأكل مثلجات! أنا أعرفكم جيداً! تصيعون دائماً حول كشك السيدة هيرت وليس في بالكم سوى لحس المثلجات!».



هذه كانت حقارة لئيمة! أن تتهمني بشراء مثلجات من كشك السيدة هيرت! علماً بأني لم أحصل على خَرْجية بعد! أخي ورفاقه كانوا يُقدمون على مثل هذه الأمور، كانوا يحملون مصروف جيبهم كله إلى كَشك السيدة هيرت. ولكن ليس أنا! كان عليَّ أن أشحذ قطعة المثلجات وأتسولها كالشحاذ من أمي أو من أختي! وها أنا أُتَهمُ هنا بالصياعة عند كشك السيدة هيرت للحس المثلجات، عوضاً عن سكب عرق جبيني في تشغيل دواسَتيّ الدراجة في مواجهة مصاعب جسيمة للوصول إلى ساعة البيانو! وفي مواجهة هذا الكم من السفالة أُرتِجَ علي الكلام وأخذت أبكي.

«كفاك نواحاً!» نبحت السيدة فونكل: «أخرج دفاترك وأرني ما تدربت عليه! من المحتمل ثانية أنك لم تتدرب في البيت».

وللأسف أنها لم تكن مخطئة تماماً في ذلك. فخلال الأسبوع الماضي لم تسمح لي الظروف أبداً بأن أتمرن، من جهة لأني كنت منهمكاً بأمور أخرى، ومن جهة ثانية لأن الإيتودات التي كلفتني بها كانت صعبة بصورة مقرفة. نوع من المتتاليات التأسيسية، التي تتباعد اليدان فيها عن بعضهما إلى اليمين واليسار وتعزف كل منهما إيقاعاً مختلفاً وغير قاعدي مع فواصل غير مألوفة، وبوَقع شنيع فوق ذلك كله. كان اسم المؤلف – الملحن هَسلَر، إن لم تخني الذاكرة وليأخذه الشيطان!

على الرغم من ذلك أعتقد أني كنت سأدبر أموري عبر المقطوعتين بصورة معقولة، لولا الإزعاجات المختلفة أثناء القدوم على الدراجة، لاسيما هجوم كلب السيدة الدكتورة هارتلاوب، وختامها سخام بعاصفة الآنسة فونكل التي دمرت أعصابي. أما الآن فإني أجلس إلى البيانو مرتجفاً ومتعرقاً وبغشاوة على العينين من البكاء، أنظر إلى ثمانية وعشرين ملمساً ونوتات السيد هسلر، وورائي الآنسة فونكل تنفث

غضبها في رقبتي... - وفشلت فشلاً ذريعاً. خربطت في كل شيء، في مفاتيح الباص والكمان، العلامات وأنصافها، الوقفات الربعية والثمانية، اليسار واليمين... لم أكد أنهي السطر الأول حتى تقافزت الملامس وعلامات النوتة في مِشْكالٍ من الدموع، وأرخيت يدي واستمريت في البكاء وحسب.

«هذا ما توقعته!» جاءني الصوت فحيحاً من ورائي وانهمر رذاذ من اللعاب على عنقي. «تصل متأخراً وقد أكلت مثلجات وتختلق الحجج، هذا ما يقدر عليه الرجال! أما أن يُحضّروا واجباتهم، فهذا ما لا يقدرون عليه! انتظر ايها الفتى! أنا مَن سيعلمك!» وانطلقت كالقذيفة من وراء ظهري وانزرعت إلى جانبي على كرسي البيانو، قبضت على يدي اليمنى بكلتي يديها، فردت الأصابع ودقت بها على الملامس الواحدة تلو الأخرى حسبما لحن السيد هسلر: «هذا هنا! وهذا هناك! وهذا هناك! والإبهام هنا! والثالث هنا! وهذا هنا! وذاك هنا...!».

وعندما انتهت من يدي اليمنى، جاء دور اليسرى بالطريقة نفسها: «هذا هنا! وهذا هناك! وهذا هناك!...!».

بهذا الإصرار أخذت تدعس أصابعي على الملامس، وكأنها تريد عجن التمرين علامة فعلامة بأصابعي. لقد آلمني ذلك واستمر نحو نصف ساعة. ثم كفت عني أخيراً، أغلقت الدفتر وزمجرت: «حتى الدرس القادم ستكون قد أجدتها يا صبي، وليس من الدفتر فقط، بل غيباً وبسرعة، وإلا سأريك!» ثم فتحت دفتر نوتات سميكاً لعزف مزدوج وخبطته على المسند قائلة: «والآن سنعزف لمدة عشر دقائق ديابِللي كي تتعلم أخيراً قراءة النوتة الموسيقية. وإياك أن تخطىء!».

أومأت برأسي بانقياد ومسحت دموعي عن وجهي بكمي. ديابللي

كان مؤلفاً رقيقاً. لم يكن ينهك العازف بمتتالياته العسيرة مثل هسلر المرعب. كان من السهل عزف ديابللي، سهولة تقارب السذاجة، المبطنة بالذكاء، لكن ألحانه رائعة دائماً. كنت أحب ديابللي، رغم قول أختي أحياناً: «حتى مَن لا يعرف العزف على البيانو إطلاقاً، يستطيع دائماً عزف لحن لديابللي».

عزفنا إذن ديابللي بأربع أيد، الآنسة فونكل يساراً تعزف أصوات الباص والأرغن وأنا يميناً منسجماً معها بالأصوات العالية. ولمدة من الزمن سارت الأمور على خير ما يرام وشعرت بثقة بالذات وحمدت الله على خلقه المؤلف أنتون ديابللي، فنسيت في طمأنينتي أحد المفاتيح الصغيرة، فلم أضغط الملمس الأسود، بل تابعت وكأن هذا المفتاح الصغير غير موجود على النوتة، ما أدى إلى نشاز مزعج طبعاً، كما سيلاحظ محب الموسيقا فوراً.

«هذا أنتْ، لا جئتَ ولا ذهبتْ!» زمجرت الآنسة فونكل: «عند مواجهة أول صعوبة صغيرة ينط الصبي جانباً! ألا ترى بعينيك هاتين؟ مفتاح Fis مطبوع هنا كبيراً وواضحاً! سنعيد من البداية! انتبه! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة..».

حتى اليوم لا أجد تفسيراً لكيفية وقوعي في الخطأ نفسه مرة ثانية. يحتمل أني كنت شديد التركيز لئلا يفوتني المفتاح، فصرت أتوقعه وراء كل علامة، وتمنيت ألا أعزف من البداية سوى هذا المفتاح، وعندما حقاً جاء دور Fis عزفت فا ثانية.

فجأة انقلب وجهها أحمر قانياً وزعقت: «هل هذا معقول! قلتُ Fis، اللعنة عليك! Fis! ألا تعرف ماهو Fis يا غبي؟ هاهو!» بينغ - بينغ وصفقت الملمس الأسود تحت G بسبابتها التي تفلطح رأسها فصار



بحجم قطعة العشر قروش من كثرة استخدامها طوال عقود في تعليم البيانو، وقالت: «هذا هو!... » – بينغ – بينغ – «هذا... –» وعندها جاءتها العطسة فعطست ومسحت بسرعة بالسبابة نفسها شاربها ثم كررت ضرب الملمس الأسود مرتين أو ثلاثة وهي تزعق بصوت عالٍ: «هذا Fis، هذا Fis... –»، ثم سحبت منديلاً من سوار كمها ونفّت فيه.

أما أنا فحدقت في Fis وشحبت. على مقدمة الملمس التصقت كمية مخاط طازج، بطول ظفر وثخن قلم رصاص تقريباً، مبرومة مثل دودة وبلون أخضر مصفر، من أنف الآنسة فونكل على الأرجح، خرجت مع العطسة وانتقلت إلى سبابتها عندما مسحت شاربها ومن سبابتها إلى الملمس الأسود.

«من البداية ثانية!» زمجر صوتها بجانبي «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...» – وبدأنا نعزف.

الثلاثون ثانية التالية تعد من أشد لحظات حياتي شناعة. كنت أشعر بانسحاب الدم من خديّ وباندفاع قطرات عرق الخوف من عنقي. انتصب شعر رأسي واقفاً وأخذت أذناي تتناوبان البرودة والسخونة إلى أن طرشتا وكأنهما مسدودتان. ماعدت أسمع شيئاً من لحن أنتون ديابللي العذب، الذي كنت أعزفه بصورة آلية دون النظر إلى دفتر النوتات. فبعد الإعادة الثانية صارت أصابعي تعزفه من نفسها – كنت أبحلق فقط بعينين واسعتين إلى الملمس الأسود تحت G، الذي التصق به مخاط ماري – لويزة فونكل... بقي سبع ضربات... بقي ست... لم يكن ضغط الملمس دون ملامسة المخاط ممكناً... بقي خمس، بقي أربع... ولكن إن لم ألامسها وعزفت F بدلاً منها للمرة الثالثة، فـ... بقي ثلاث ضربات – يا إلهي الحبيب إليّ بمعجزة! قل شيئاً! إفعل

شيئاً! شق الأرض! حطم البيانو! دعِ الزمن يعود إلى الوراء كي لا أضطر لعزف Fis هذه!...بقي ضربَتان، ضربة واحـدة... والرب الحبيب صمتَ و لم يفعل شيئاً، والإيقاع الأخير المرعب حان وقته، إنه يتألف - أعرف ذلك بدقة - من ست ثُمانيات تنزل من D حتى Fis وتصب في ربع علامة على G التي تعلوها... ترنحت أصابعي على هذا السلم الثُماني كالنازل إلى هادس « Fis - ...G، A، H، C، D الآن!» علت صيحة بجانبي... وأنا في كامل وعيي لما فعلت، محتقراً الموتَ، عزفتُ F.

ما كدت أسحب أصابعي حتى انخبط غطاء البيانو، وفي الوقت نفسه انتفضت الآنسة فونكل عالياً مثل شيطان العلبة.

«لقد فعلتَ ذلك عامداً!» صرخَت بصوت ملعلع ذي دويّ، لدرجة أني سمعت الجلجلة رغم طرش أذنيّ. «لقد فعلت ذلك عن قصد مبيّت، يا أيها الصبي المُقمّل! المريّل! يا عنيد! يا قذر، أنت لا تعرف الحياء..».

ثم أخذت تدور بسرعة وبخطوات تدك الأرض حول طاولة الطعام الموجودة في وسط الغرفة، وتخبط بيدها مع كل ثاني خطوة بعنف على سطح الطاولة.

«لكني لن أسمح لك بأن تتلاعب بي، أتسمع! لا تتخيل أبداً أني من النوع الذي يسهل المزاح معه! سوف أخابر أمك. سوف أخابر أباك. سأطالبه بضربك فلا تستطيع الجلوس مدة أسبوع! سأطالب بحجزك في البيت ثلاثة أسابيع وبأن تتدرب ثلاث ساعات كل يوم على سلم جي - دور، وعلى سلم دي - دور معه، وعلى سلم آ - دور معه، إضافة إلى Fis و Cis و Gis إلى أن تحفظها في نومك! لسوف تتعرف

علي يا ولد! لسوف... وكم أفضّل الآن فوراً... وشخصياً... بيدي هاتين..».

. ومن شدة غضبها وتوترها أُرتج عليها الكلام، وأخذت تجدف في الهواء بذراعيها، وصار وجهها أحمر داكناً يكاد ينفجر في أية لحظة، وأمسكت أخيراً بتفاحة من صحفة الفواكه أمامها وقذفتها بأقصى طاقتها على الجدار، بحيث تركت في مكان اصطدامها بقعة بنية، على يسار ساعة البندول فوق رأس أمها السلحفاة العجوز بقليل.

وبصورة شبحية من ثم، كأنما أحدهم كبس زراً، صدرت حركة عن جبل التول الأبيض وظهرت من ثنايا الثوب اليد العجوز وتحركت نحو اليمين آلياً إلى صحفة البسكوت...

إلا أن الآنسة فونكل لم تلحظ ذلك نهائياً، أنا فقط من رأى ذلك. اما هي ففتحت باب الدارعلى آخره وأشارت بيدها الممدودة إلى الخارج ونعقت: «خذ أغراضك واغرب عن وجهي!» وبعد أن خرجتُ مترنحاً صفقتْ الباب ورائي بعنف.

كان جسمي كله يرتجف، وكانت ركبتاي تصطفقان بحيث أني لم أكن قادراً على المشي، ناهيك عن السواقة. بيدين راجفتين ثبّتُ النوتات على منصب الأغراض ودفعت الدراجة إلى جانبي. وفي أثناء ذلك كانت أشد الأفكار سواداً تغلي في روحي. إن ما أثار نقمتي وما استفزني إلى حدود القشعريرة لم يكن عاصفة الآنسة فونكل ولا التهديد بالضرب والحجز المنزلي ولا الخوف من أي شيء، بل كان بالأحرى إدراكي الساخط بأن الدنيا كلها ليست سوى سفالة ظالمة وشريرة ومنحطة، وأن الآخرين هم سبب هذه السفالة اللئيمة. كلهم في واقع الأمر، من دون استثناء. بدءاً من أمي، التي لم تشترِ لي دراجة



مناسبة؛ وأبي الذي يساندها دائماً؛ وأخي وأختي اللذين يضحكان ساخرين مني لاضطراري إلى السواقة واقفاً؛ وكلب السيدة الدكتورة هارتلاوب الحقير الذي يزعجني دائماً؛ والمشاة الذين يسدون طريق البحيرة، ما يؤدي إلى تأخيري؛ والملحن هسلر، الذي عذبتني متتالياته وأسامتني؛ والآنسة فونكل باتهاماتها المفترية ومخاط أنفها على ملمس Fis... وصولاً إلى الرب الطيب، نعم، حتى مَن يسمونه الرب الطيب، الذي إنْ احتاجه الإنسان مرة وابتهل إليه طالباً دعمه، لايجد الرب مايفعله أفضل من تغليف نفسه بالصمت وتركِ الأمر للقدَر الظالم. فما حاجتي لهؤلاء الأوباش الذين تآمروا ضدي؟ ماذا تعنيني هذه الدنيا بعد؟ في عالم على هذه الدرجة من السفالة لا أريد أن أعيش. وليختنق الآخرون بسفالاتهم، وليدهنوا مخاطهم حيث يشاؤون! بعيداً عني! أنا سأنسحب من هذه اللعبة. سأقول لهذه الدنيا وداعاً. سانتحر. والآن فوراً.

بعد أن توصلت إلى هذه الفكرة برد قلبي وسكن. فتصُورُ أني لا أحتاج عملياً إلا «للخروج من هذه الحياة» - حسب التعبير الودي عن هذا الحدث -، لكي أنفض عني دفعة واحدة كل أشكال القذارات والظلم، كان له وإلى حد كبير تأثير مؤاسٍ ومُرض. فقد جفت الدموع وتوقفت الرجفة. إذن ثمة أمل في هذه الدنيا. ولكن لابد من التنفيذ حالاً، بل فوراً، قبل أن أغير رأيي.

ركبت الدراجة وانطلقت. عند وصولي إلى مركز «فوق البحيرة» لم أتابع في الطريق العائد إلى البيت، بل انعطفت عن طريق البحيرة يميناً، عبرت الغابة وصعدت الهضبة وقطعت درباً زراعياً غير معبد إلى طريق المدرسة متوجهاً نحو كوخ المحولات الكهربائية. هناك تنتصب أعلى شجرة حسب معرفتي، شجرة تنوب عملاقة. أردت أن أتسلق

هذه الشجرة وأن أرمي نفسي من ذروتها. ما كان ليخطر في بالي قطعاً شكلٌ آخر للموت. كنت أعرف أن من الممكن للمرء أن يُغرِق نفسه أو يطعن نفسه بخنجر أو يخنق أو يشنق أو يصعق نفسه بالتيار حتى الموت - وهذا الأخير شرحه لي أخي ذات مرة بالتفصيل: «لكنك تحتاج عندها إلى خط بارد. هذا هو الأمر الرئيسي. فدون خط بارد لن يحصل أي شيء، وإلا لسقطت جميع الطيور ميتة، أقصد التي تقف على اشرطة الكهرباء. لكنها تقف ولا تموت. لماذا؟ لعدم وجود خط بارد. ويمكنك حتى - نظرياً - أن تتعلق بخط توتر عالٍ بقوة مئة ألف فولت دون أن يصيبك أي أذى، إذا لم يكن لديك خط بارد». حسب قول أخي. بالنسبة إلي كان هذا كله بالغ التعقيد، خط كهربائي وما شابه ذلك. ثم إني لم أكن أعرف ماهو الخط البارد. لا، لم يخطر في بالي سوى السقوط من أعلى شجرة. فالسقوط لم يكن يخيفني. إنه الطريقة الوحيدة المناسبة لي للخروج من الحياة.

أوقفت الدراجة بجانب كوخ المحولات وشققت دربي عبر الأدغال إلى شجرة التنوب الأحمر. كانت متقدمة جداً في السن لدرجة أن لا أغصان لها أسفل جذعها. فكان عليّ أولاً تسلق شجرة شابة مجاورة والانتقال منها إلى أغصان العجوز. وبعد ذلك صار كل شيء يسيراً. تسلقت باتجاه السماء على أغصان متينة آمنة، و لم أتوقف إلا عندما سطع نور الشمس فجأة من خلال الأغصان الفرعية وصار الجذع رفيعاً، بحيث شعرت بتأرجحه الخفيف. كنت لا أزال على مسافة من الذروة، لكني عندما نظرت لأول مرة نحو الأسفل، لم أرَ الأرض. إلى هذه الدرجة بلغت كثافة الأغصان والأوراق الإبرية، بحيث شكلت سجادة بنية خضراء ممدودة تحتي. يستحيل القفز من هنا، إذ سيكون أشبه بالقفز من فوق الغيوم على سرير مخادع متين وقريب، وإلى المجهول. وأنا لم أرد القفز إلى المجهول، بل أردتُ رؤية

إلى أين وكيف سأسقط. يجب أن أسقط سقطة حرة وفق قوانين غاليليو غاليليه.

عدت وتسلقت نزولاً إلى منطقة الغسق، معانقاً الجذع من غصن رئيسي لآخر متلصصاً نحو الأسفل بحثاً عن انفراج فتحة ملائمة لسقطة حرة. وجدتها بعد بضعة أغصان رئيسية تحتي، كانت مهبط طيران مثالياً، مثل بئر عميقة شاقولية حتى الأرض، حيث تعرقات جذور الشجرة الكثيرة العقد ستوفر صدمة مميتة حتماً. كان عليّ أن أبتعد قليلاً عن الجذع بالزحف على الغصن نحو الخارج قبل أن أقفز، كي أسقط إلى عمق القاع دون عوائق.

سندت نفسي ببطءعلى ركبتي ثم جلست على الغصن ساندا ظهري على الجذع ولهثت. حتى هذه اللحظة لم أجد وقتاً للتفكر في ما أنا مُقدِم عليه، لأن عملية التنفيذ نفسها قد شغلت كل وقتي. أما الآن قبيلَ اللحظة الحاسمة، فقد عادت الأفكار مجدداً وتدافعت، فوجهتها بعد أن لعنت الدنيا الشريرة ثانية، بقضها وقضيضها، نحو التصور الأكثر ألفة المرتبط بجنازتي ودفني. أووه، كم ستكون جنازة بهية! ستقرع نواقيس الكنيسة وستهدر موسيقا الأرغـن، ومقبرة «فوق البحيرة» لن تتسع لجميع المعزين. سأكون مسجى على أزهار في تابوت زجاجي وجواد صغير أسود سيجر العربة، ولن يحيط بي سوى نشيج مهول.

والداي واخوتي ينشجون، أولاد صفي في المدرسة ينشجون، السيدة الدكتورة هارتلاوب والآنسة فونكل تنشجان، ومن أماكن بعيدة جاء أقارب وأصدقاء لينشجوا، والكل كانوا يضربون على صدورهم وينشجون ثم انفجروا ينوحون: «آه، نحن المذنبون لكون هذا الإنسان اللطيف والفريد لم يعد بيننا! آه، ياليتنا عاملناه بلطف،

لو لم نكن أشراراً وظالمين في معاملتنا له، لكان الآن حياً بيننا هذا الإنسان الطيب الودود اللطيف الفريد!» وعلى طرف قبري وقفت كارولينا كوكلمَن ورمت إلي باقة زهور وآخر نظرة وقالت تحت الدموع بصوت مبحوح جرّحه الألم: «أخ ياعزيزي! أيها الفريد! ليتني رافقتك في ذاك الإثنين!».

رائعة، هذه التخيلات! انغمستُ فيها بمتعة، تمثلتُ الدفن بتنويعات متجددة كل مرة، من التسجية حتى مأدبة الميت، التي تخللتها كلمات رثاء ومديح لمناقبي. وفي نهاية المطاف وصل بي التأثر حداً انهمرت معه دموعي، إن لم أكن قد انتحبت فعلاً. لقد كانت أجمل جنازة رأتها عين في منطقتنا كلها، وستبقى حتى بعد عشرات السنين مادة حديث شجي في ذاكرة الناس... لكن ما يؤسف له حقاً هو عدم قدرتي على المشاركة فيها بنفسي، إذ إني سأكون عندها ميتاً، وليس في الأمر للأسف ما يستدعي الشك. ففي جنازتي أنا لابد من أن أكون ميتاً. ولايمكن التنعم بالوضعين معاً: الانتقام من الدنيا والاستمرار في عيشها. فليكن الانتقام إذن!

انفصلت عن جذع شجرة التنوب. تقدمت باتجاه الخارج ببطء سنتمتراً وراء الآخر، مستنداً بيدي اليمنى على الجذع ومعانقاً بيسراي الغصن الذي أجلس عليه. وحلّت اللحظة التي لم أعد ألمس فيها الجذع إلا برؤوس أصابعي... ثم انتهى حتى هذا... وبقيت جالساً دون سند جانبي، متمسكاً بكلتي يدي بالغصن، حراً مثل عصفور، وقاع البئر تحتي. بحذر شديد جداً نظرت نحو القاع. قدرت ارتفاعي عن الأرض بما يعادل ثلاثة أمثال ارتفاع جَملون بيتنا. وارتفاع جَملون بيتنا يساوي عشرة أمتار، وبهذا أكون إذن على ارتفاع ثلاثين متراً، ووفق قوانين

غاليليه يكون زمن السقوط معادلاً لـ ٢،٤٧٣٠٩٨٦ ثانية[٢]، كما ستساوي سرعة الاصطدام بالأرض ٨٧،٣٤ كم / ثا[٣].

نظرت طويلاً نحو الأسفل. القاع يجذب. وكان يجذبني بإغواء، ويلوّح لي: «تعال، تعال!» كان يشدني بخيوط غير مرئية: «تعال، تعال!» وكان الأمر بسيطاً. بسيطاً جداً كلعب الأطفال. أن تميل قليلاً إلى الأمام، وأن تفقد التوازن قليلاً – والبقية تأخذ مجراها من نفسها... «تعال، تعال!».

نعم! أنا أريد، نعم! كل ما في الأمر أني لم أقرر، متى! لا أستطيع أن أحسم أمري بعد للحظة محددة، لنقطة زمنية معينة وأن أقول: «الآن! تواً سأفعلها!»

قررت أن أعدّ حتى ثلاثة، كما نفعل في السباق أو عند القفز في الماء، وعندما أصل إلى الثلاثة أترك نفسي لأسقط. أخذت نفساً عميقاً وعددت:

«واحد... اثنان...» وتوقفت، لأني لم أعرف ما إذا كنت سأقفز بعينين مفتوحتين أو مغمضتين. بعد تفكير قصير قررت أن أعدّ مغمض العينين وعند «ثلاثة» أميل في الفراغ مغمض العينين أيضاً، ثم

٢– مع إهمال مقاومة الهواء!

٣– من البديهي أني لم أتوصل إلى هذا الرقم بسبع خانات بعد الفاصلة بينما كنت جالساً على الغصن آنذاك، إنما بعد ذلك بمدة طويلة وبمساعدة آلة حاسبة للجيب. وقوانين السقوط لم أكن أعرفها حينها إلا كعنوان وسماعاً فحسب، وليس بمعناها الدقيق أو حسب معادلتها الحسابية. وقد انحصرت حساباتي في تخمين ارتفاع السقطة وفي التقدير المستند إلى خبراتي العملية المتنوعة، بأن زمن السقوط بالمقارنة سيكون طويلاً وبأن سرعة الصدمة ستكون عالية جداً.



أفتحهما في لحظة بداية السقوط. أغمضت عيني وعددت: «واحد... اثنان..».

عندها سمعت دقاً. تناهى إلي من الطريق. دقاً قاسياً وبإيقاع، «تك - تك - تك - تك»، كان يصدر بضعف سرعة تعدادي، مع «واحد» يأتي «تك»، وبين «واحد» و«اثنان» ومع «اثنان» وبين «اثنان» و«ثلاثة» المتوقعة - تماماً مثل مترونوم الآنسة فونكل: «تك - تك - تك - تك». بدا الأمر ولكأن الدقّ يقلد تعدادي. فتحت عينيّ، وفي الوقت نفسه توقف الدق، وبدلاً منه سمعت صوت حفيف أوراق وتكسر أغصان ولهاثاً حيوانياً قوياً - وفجأة ظهر السيد زومر تحتي، بعمق ثلاثين متراً، تحتي شاقولياً تماماً، بحيث أني إذا سقطتُ فإني سأحطمه معي أيضاً. تشبثت بغصني بقوة وسكنت كلياً.

بقي السيد زومر جامداً في مكانه وهو يلهث. وبعد أن استقر تنفسه نوعاً ما، أمسكه، وأمال رأسه إلى الوراء قليلاً وأداره في جميع الاتجاهات، متنصتاً على مايبدو. ثم انحنى متلصصاً تحت الدغل يميناً وتحت الشجيرات يساراً، وتسلل مرة كالهنود حول شجرة التنوب ليظهر في مكانه السابق ثانية منصتاً ومتلصصاً حوله (ولكن ليس نحو الأعلى!) وبعد أن تأكد من أن أحداً لم يتبعه ومن عدم وجود أي إنسان في مرمى النظر، رمى عن نفسه بثلاث حركات سريعة قبعته القشية وعصاه وشنطة الظهر وتمدد بالطول بين الجذور على أرض الغابة وكأنه في سرير. إلا أنه لم يهدأ في هذا السرير، إذ إنه ما أن استلقى حتى أطلق تنهيدة طويلة ذات وقع مرعب - لا، لم تكن تنهيدة، فصوت التنهيدة ينطوي على شيء من الارتياح، بل كانت أقرب إلى مزيج من التأوه والأنين، صوتاً صدرياً عميقاً شاكياً، يمتزج فيه اليأس مع التوق إلى الطمأنينة. وأطلق ثانية هذا الصوت الذي تقشعر له الأبدان، هذا التأوه



الابتهالي لمريض موجوع، دونما ارتياح ثانية، دون تفريج، دون سكينة ولو للحظة واحدة، فهاهو ينهض ثانية، يلتقط شنطة ظهره، يخرج منها بحركات سريعة شطائره ومطرةَ ميدانٍ معدنية مسطحة ويبدأ يأكل، بل يلتهم خبزه المدهون بالزبدة وهو يتلفت حوله متشككاً مع كل عضة، وكأن ثمة أعداء في الغابة يتربصون به، وكأن هناك شخصاً مخيفاً يطارده، كان قد سبقه بمسافة ما، أخذت تضيق وتضيق، بحيث يُحتمل ظهوره ثانية في أي لحظة هنا في الغابة. انتهى من الأكل في أقصر وقت ممكن، صب في حلقه جرعة من مطرة الميدان ثم تحول كل شيء إلى عجلة متوترة انتهت بانطلاق مذعور: رمى المطرة في الشنطة التي وضعها على ظهره أثناء نهوضه، وتناول بقبضة واحدة العصا والقبعة وهرول لاهثاً عبر الدغل مصدراً أصوات حفيف وطقطقة أغصان تتكسر، ثم تناهى إلي من الطريق دق عصاه الرتيب كالمترونوم على الأسفلت القاسي: «تك – تك – تك – تك – تك – تك...» وهو يتخافت مع ابتعاده.

وجدت نفسي جالساً عند شعبة الغصن ملتصقاً بالجذع ولا أعرف كيف وصلت إلى هناك. كنت أرتجف وأشعر ببرد. وفقدت رغبتي نهائياً بالقفز إلى قاع البئر. بدا لي الأمر سخيفاً مضحكاً. و لم أعد أفهم كيف خطرت في بالي هذه الفكرة المجنونة: أن تنتحر بسبب مخطة! وقد رأيت لتوي رجلاً أمضى كل حياته هرباً من الموت.

مضت نحو خمس أو ست سنوات قبل أن ألتقي ثانية بالسيد زومر، وكانت تلك المرة الأخيرة أيضاً. لاشك في أني قد رأيته خلال تلك المدة عدة مرات، إذ كان من المستحيل تقريباً ألاّ تلتقي به وهو يمضي كل وقته على الطرقات، في مكان ما على الطريق العام، أو على أحد الدروب الكثيرة حول البحيرة، أو عبر أحد الحقول أو في الغابة. إلا أنه لم يعد يلفت انتباهي على نحو خاص، فمن كثرة ماتراه لم تعد تراه، مثل أحد المعالم المألوفة جداً في منظر عام، حين لا يندهش واحدنا كل مرة ويصيح: «شُف، هاهو برج الكنيسة! شُف، ذاك هو جبل المدرسة! شُف، هاهو باص النقل العام يمر!...» وعلى أكثر تقدير عندما أرافق أبي إلى سباق الخيل يوم الأحد ونتجاوزه بالسيارة كان أحدنا على سبيل المزاح يقول: «شُف، هاهو السيد زومر يمشي - سيجلب الموت لنفسه!»، و لم نكن في واقع الأمر نقصده هو، وإنما ذكرى يوم البرَد ذاك قبل سنوات كثيرة عندما استخدم أبي القول النمطي.

وصل إلى سمعنا من أحدهم أن زوجته صانعة الدمى قد ماتت، لكنه لم يعرف بدقة متى وأين، و لم يشارك أحد من معارفنا في الجنازة والدفن، وأن السيد زومر لم يعد يسكن في قبو معلم الدهان شتانغلماير، وإنما بعد دارين، في عليّة صياد السمك ريدل. لكنه لايتواجد هناك إلا نادراً، قالت السيدة ريدل لاحقاً، وإن تواجد فلفترة قصيرة جداً،

ليأكل شيئاً أو ليشرب شاياً ثم يتابع مشيه. وكثيراً ما كان يتغيب عدة أيام عن البيت ولا يأتي حتى للنوم. أين كان، أين أمضى الليل، هل نام في مكان آخر، أم قضى النهار والليل متجولاً - لا أحد يعرف شيئاً. ولم يكن أمره يهم أحداً، فالناس باتت مشغولة بهموم أخرى في هذه الأيام. يفكرون بسياراتهم، بالغسالة، بمِرَش المرج، ولكن ليس بأين ذهب العجوز الغريب الأطوار لينام. باتوا يتحدثون عما سمعوه من الراديو بالأمس أو شاهدوه على شاشة التلفزيون أو عن مخزن الخدمة الذاتية الجديد للسيدة هيرت - ولكن ليس عن السيد زومر طبعاً! فعلى الرغم من أنه مازال يشاهَد من حين لآخر، لكن السيد زومر لم يعد موجوداً في وعي الآخرين، لقد طوى الزمن صفحته، حسب التعبير الشائع. أما أنا فلا، لأني سايرت الزمن، بل كنت في أوجه - هكذا بدا الأمر لي على الأقل -، وأحياناً كنت أحس أني متقدم على زمني! كنت قد شارفت على ١٧٠ سم طولاً وصار وزني ٤٩ كغ وقياس حذائي ٤١ وصرت في الصف الخامس ثانوي. كنت قد قرأت جميع حكايات الأخوين غريم ونصف موباسان فوقها. كنت قد دخنت نصف سيكارة وشاهدت في دار السينما فيلمين عن قيصرة نمساوية. وكنت على وشك الحصول على الهوية المدرسية التي تحمل الختم الأحمر المنشود «تجاوز ١٦ سنة» التي تخولني حضور أفلام الكبار دون مرافقة «الوالدين أو المكلف بالتربية» وارتياد المقاهي العامة حتى الساعة العاشرة مساء. بت قادراً على حل معادلات بثلاثة مجاهيل، وعلى تركيب لاقط كريستالي للموجات المتوسطة، وحفظت باللاتينية غيباً مقدمة «تقارير الحروب الغالية» ليوليوس قيصر، والسطر الأول باليونانية من «الأوذيسة »، رغم أني لم أتعلم اليونانية. على البيانو لم أعد أعزف ديابللي أو هسلر الكريه، بل إضافة إلى مقطوعات بلوز وبووغي - ووغي بعض الألحان الشهيرة لمؤلفين مثل هايدن، شومَن،



بيتهوفن، أو شوبان، وصرت أتغاضى رواقياً عن بعض سورات غضب الآنسة فونكل وأتقبلها بابتسامة عابثة.

لم أعد أتسلق الأشجار إلا نادراً. بدلاً من ذلك صرت أملك دراجة خاصة، كانت لأخي سابقاً، ذات مقود السباق وجنزير السرعات الثلاث، والتي حطمتُ عليها الزمن القياسي السابق، ثلاث عشرة دقيقة ونصف لقطع المسافة من فيللا فونكل إلى «تحت البحيرة» باثنتي عشرة دقيقة وخمس وخمسين ثانية، ضبطتُها بساعة يدي الخاصة. لقد صرت - بكل تواضع - سائق دراجة متميزاً، لا بما يتعلق بالسرعة والتحمل فقط، بل على صعيد المهارة أيضاً. فالقيادة دون إمساك المقود والانعطاف وَالدوران في المكان أو بواسطة الفرملة التامّة مع أثر القوة النابذة كنت أنفذها بيسر. حتى أني كنت أستطيع الوقوف بقدمي على منصب الأغراض أثناء سير الدراجة - صحيح أنها حركة بلا معنى، لكنها ذات تأثير بهلواني، يشهد على ثقتي التي باتت لامحدودة بقانون التوازن الآلي بدافع الـدوران. فقد تلاشت شكوكي كلياً بسواقة الدراجات، سواء نظرياً أوعملياً. بت أسوق الدراجة بحماسة، وسواقة الدراجة كانت تشبه الطيران.

في تلك المرحلة وجِدتْ في حياتي أيضاً أمورٌ تنغص العيش، لاسيما منها أ -واقع عدم تمكني بشكل آمن من الوصول إلى جهاز راديو يلتقط الموجات فوق القصيرة، الأمر الذي كان يفوّت علي فرصة الاستماع إلى التمثيلية الإذاعية البوليسية من العاشرة حتى الحادية عشرة مساء الخميس، ويضطرني إلى الاستماع إليها صباح الجمعة في باص المدرسة،بلسان وأسلوب صديقي كورنِليوس ميشِل. ب - واقع أننا لم نكن نمتلك جهاز تلفزيون. فأبي الذي ولد في سنة وفاة جوزِبِه فردي قرر: «لن يدخل جهاز التلفزيون بيتي،

لأنه يقوض ممارسة الموسيقا المنزلية ويخرب العينين ويضعضع الحياة العائلية ويؤدي بصورة عامة إلى الغباء».[٤] وللأسف لم تعارضه أمي في هذه النقطة، فوجب عليّ التواجد عند صديقي كورنليوس ميشل، على الأقل للتمتع بين الحين والآخر بمتابعة أحداث ثقافية مهمة، مثل مسلسلات: «أمي هي الأفضل» و«لاسي» و«مغامرات هيرام هوليدَي».

لسوء حظي كانت كل هذه المسلسلات تقريباً تُبث في فترة ما يسمى برامج ما قبل المساء وتنتهي في الثامنة تماماً، عند موعد نشرة أخبار اليوم. ولكن في الثامنة تماماً يُفترض بي أن أكون جالساً إلى طاولة العشاء وقد غسلت يديّ. وبما أن التواجد في مكانين مختلفين في اللحظة الزمنية نفسها مستحيل،

لاسيما إذا كانت المسافة بين المكانين تعادل سبع دقائق ونصف على الدراجة - ناهيك عن غسل اليدين -، فإن نزواتي التلفزيونية كانت تؤدي بانتظام إلى الصراع الكلاسي بين الواجب والرغبة. فإما أن أغادر إلى البيت قبل انتهاء المسلسل بسبع دقائق ونصف، فأفوّت على نفسي حل العقدة الدرامية؛ أو أبقى حتى الختام، فأصل بالتالي متأخراً سبع دقائق ونصف عن موعد العشاء مخاطراً بشجار مع أمي وبشروح مسهبة ظافرة من جانب أبي حول ضعضعة التلفزيون للحياة الأسرية. يبدو لي بصورة عامة أن تلك المرحلة من حياتي قد اصطبغت

٤- هناك يوم واحد في السنة لاغير، لايخرب التلفزيون فيه النظر ولا يؤدي إلى غباء عام، ألا وهو الأول من تموز / يوليو، الذي يُبث فيه الدربي الألماني من مضمار سباق الخيل في هامبورغ - هورن. بهذه المناسبة يضع أبي على رأسه قبعة اسطوانية رمادية ويركب سيارته إلى «فوق البحيرة» إلى دار آل ميشِل ليشاهد البرنامج عندهم.

بصراعات من هذا القبيل وما شابه ذلك. دائماً كان يجب عليّ، يُفترض بي، يُفضل لو أني... دائماً كان ثمة ما يُتوقع مني، يُطلب مني أو أؤمر به: افعل هذا! أفعل ذاك! ولكن لا تنس تلك! هل أنجزت هذا؟ هل ذهبت إلى؟ لماذا تأخرت حتى الآن؟... - ضغط دائم، إلحاح دائم، عجلة دائمة، والساعة مرفوعة في وجهك دائماً. نادراً ما كان يُترك المرء لشأنه، آنذاك... لكنني لاأريد الآن أن أغرق في الشكوى وأسترسل عن نزاعات أيام شبابي. بل الأجدى أن أحكّ بسرعة مؤخرة رأسي، ويفضل النقرعدة مرات بهدوء على الموضع المعلوم بالأصبع الوسطى وأن أركز تفكيري على ما أريد في واقع الأمر الكلام عنه، أقصد اللقاء الأخير بالسيد زومر والوصول بذلك إلى نهايته وخاتمة هذه القصة.

كان ذلك في الخريف بعد إحدى أمسيات التلفزيون تلك عند كورنليوس ميشل. كانت الحلقة مملة ونهايتها متوقعة سلفاً، وهكذا غادرت دار ميشلٍ قبل الثامنة بخمس دقائق للوصول إلى البيت في موعد العشاء تقريباً.

كان الظلام قد انتشر في الأنحاء، إلا في جهة الغرب فوق البحيرة، حيث تبقّى نور رمادي في السماء. قدت الدراجة دون تشغيل ضوئها، من جهة لأن اللمبة كانت غالباً معطوبة - إما اللمبة نفسها أو المقبس أو السلك -، ومن جهة أخرى لأن الدينامو يعيق الحركة الحرة للدولاب، فيطيل مدة الوصول إلى «تحت البحيرة» بأكثر من دقيقة. ثم إني لا أحتاج إلى إضاءة، لأني أعرف الطريق حتى في نومي. ليلاً يكون اسفلت الطريق الضيق أشد سواداً من عتمة أسوار الحدائق عن يميني وأدغال الشجيرات عن يساري، فليس على المرء سوى اتباع الخط الأشد سواداً ليكون آمناً.

وهكذا انطلقت في مطلع الليل منحنياً على مقود السباق وبالسرعة



الثالثة والهواء يصفر حول أذنيّ. كان الجو فاتراً ورطباً وكنت أشم أحياناً رائحة دخان.

في منتصف المسافة – في هذه المنطقة يبتعد الطريق عن البحيرة قليلاً في قوس خفيف عبر مَحْجَر قديم، وبعدها تبدأ الغابة بالارتفاع – أفلتَ الجنزير من الترس المسنن. كان هذا للأسف خللاً كثير الحدوث، رغم سلامة جهاز التنقيلات، ناتجاً عن نابض مهترئ لايعطي الجنزير شداً كافياً. وقد أمضيت الكثير من أوقات بعد الظهر في معالجة الأمر، دون التمكن من إزالة العطب. فتوقفت وترجلت وانحنيت على الدولاب الخلفي لتحرير الجنزير العالق بين ترس المسننات والإطار ومن ثم لإعادته إلى مكانه الصحيح بتحريك الدواسة بيدي بهدوء شديد. وقد ألفت هذه العملية لدرجة أني قادر على إجرائها حتى في العتمة دون مَشكلة. لكن المزعج في الأمرهو تلوث الأصابع بالشحم بشكل مقرف. وهذا ما جرى الآن أيضاً، فتوجهتُ بعد أن ركّبت الجنزير إلى جانب الطريق المطل على البحيرة لأمسح يدي بالأوراق الكبيرة الجافة لشجيرة قيقب. وعندما جذبت الأغصان إليّ انكشف منظر البحيرة، التي كانت مستلقية هناك مثل مرآة هائلة. وعلى حافة المرآة وقف السيد زومر.

للوهلة الأولى ظننت أنه بلا حذاء، ثم تبين لي أنه واقف في الماء حتى ما فوق بوطه،على مسافة بضعة أمتار من الشاطئ، وظهره لي. كان ينظر باتجاه الغرب، حيث لايزال هناك وراء الجبال خط ضياء أبيض ضارب للصفرة. كان واقفاً هناك مثل عمود مزروع في الماء، مثل شبح معتم أمام مرآة البحيرة المضيئة، عصاه الطويلة بيمينه والقبعة القشية على رأسه. كان يمشي في الماء مثلما يمشي على الأرض، بنفس السرعة والحزم، إلى داخل البحيرة، في خط مستقيم نحو الغرب. البحيرة ضحلة

في هذه الجهة والعمق فيها يتدرج ببطء. بعد أن مشى السيد زومر نحو عشرين متراً وصل الماء بالكاد إلى وركيه، وعندما بلغ الماء صدره كان قد ابتعد رمية حجرعن الشاطئ. وتابع مشيه باستمرار، على الرغم من عرقلة الماء لعجلته، ودون لحظة تردد، مصمماً بل متلهفاً للتقدم بسرعة أكبر رغم عائق الماء، إلى أن رمى أخيراً عصاه وأخذ يجدف بذراعيه.

كنت واقفاً على الشاطئ أحدق إليه متابعاً بعينين مندهشتين وفم مفتوح. أظن أني هكذا بدوت، مثل شخص ينصت إلى قصة مثيرة. لم أكن مرعوباً، بل مأخوذاً بما أرى، كالمقيد، دون أن أستوعب طبعاً فداحة ما يجري. اعتقدت في البداية أنه يقف باحثاً عن شيء ما أضاعه في الماء؛ ولكن مَن ذا الذي يقف في الماء ببوطه ليبحث عن شيء فيه؟ ولكن عندما انطلق ماشياً، فكرت: إنه يستحم، ولكن أيضاً مَن ذا الذي يستحم بكامل ثيابه، وليلاً في أكتوبر؟ وأخيراً عندما تابع مشيه في العمق، خطرت في بالي الفكرة المجنونة بأنه يريد عبور البحيرة على قدميه – وليس سباحة، ولا للحظة فكرت في السباحة، فالسيد زومر والسباحة لا يتماشيان، لا، بل العبور مشياً، أن يسرع على القاع عابراً، على عمق مِئة متر تحت الماء ولمسافة خمسة كيلومترات حتى الضفة الأخرى.

وصل الماء الآن إلى كتفيه، والآن حتى عنقه... وهو لايزال مندفعاً إلى الأمام، متقدماً إلى داخل البحيرة... إنه يرتفع عالياً ثانية، كأنه ينمو، نتيجة مشيه على مرتفع في القعر على ما يبدو، برز من الماء حتى كتفيه مرة ثانية... وتابع دون توقف، ولا الآن، تابع ونزل في الماء أكثر، حتى العنق، حتى الحنجرة، حتى ما فوق الذقن... وعندها فقط بدأت أحدس بما يجري هناك، لكنني بقيت جامداً، لم أهتف: «يا سيد زومر! توقف! إرجع!» لم أركض لطلب النجدة، لم أتلفت بحثاً عن قارب

لينقذه، عن طوف، عن وسادة هوائية، بل حتى لم يرف جفني مرة عن النقطة الصغيرة، رأسه، الذي يغطس هناك.

ثم وبلمح البصر اختفى. لم يبق على سطح الماء سوى قبعته القشية. وطوال مدة رهيبة من الزمن، ربما نصف دقيقة، وربما دقيقة كاملة، بقيت فقاقيع هواء كبيرة تتصاعد إلى سطح الماء، ثم لا شيء. لاشيء سوى هذه القبعة المضحكة، التي أخذت تتباعد ببطء باتجاه الجنوب الغربي. بقيت أتابعها بنظري طويلاً إلى أن اختفت في الغسق البعيد.

استغرق الأمر أسبوعين إلى أن انتبه أحدهم إلى اختفاء السيد زومر. وفي واقع الأمر كان أول من انتبه هي زوجة صياد السمك ريدل، التي قلقت بشأن الأجرة الشهرية عن عليّتها. وبعد انقضاء أسبوعين آخرين دون ظهوره شاورَت في الأمر السيدة شتَانغلماير، التي شاورت بدورها السيدة هيرت، التي سألت بدورها زبائنها. ولكن بما أن أياً منهم لم يحظ برؤية السيد زومر ولا أحدَ منهم يعرف شيئاً عن مكان وجوده، قرر الصياد ريدل بعد أسبوعين آخرين تقديم إعلان عن مفقود لمخفر الشرطة. وبعد مضي عدة أسابيع أخرى نُشر في قسم المحليات في الجريدة إعلان بحث صغير مرفقاً بصورة جواز قديمة جداً، لم يتعرف أحد من خلالها على السيد زومر، بدا فيها شاباً بشعر أسود يغطي كل رأسه، بنظرة جريئة وشبه ابتسامة جريئة أيضاً على شفتيه. وتحت الصورة قرأ الناس لأول مرة اسم السيد زومر الكامل: مكسيمليان إرنست إغيديوس زومّر.

على إثر ذلك ولفترة قصيرة صار السيد زومر واختفاؤه الغامض حديث الساعة في القرية. وقال كثيرون: «لقد جن نهائياً في آخر أيامه، يبدو أنه تاه ولم يعد يعرف طريق الرجوع إلى بيته. ويحتمل أنه لم يعد يعرف اسمه وأين يقيم».

وقال آخرون: «ربما هاجر، إلى كندا أو أستراليا لأن المكان عندنا في أوروبا قد ضاق عليه بسبب الكلاوستروفوبيا المصاب بها».

ورأى غيرهم أنه: «تاه في الجبال وسقط في وادٍ عميق ومات».

لم تخطر البحيرة في بالِ أحد إطلاقاً. وقبل أن يَصفَرَّ ورق الجريدة كان السيد زومر قد نُسي. لم يفتقده أحد على كل حال. جمعت السيدة ريدل أغراضه القليلة في زاوية في القبو وتابعت تأجير العليّة للمصطافين. إلا أنها لم تستخدم كلمة «مصطافون»، لأنها بدت لها مضحكة، وفضلت عليها «أهل المدينة» أو «السيّاح».

أما أنا فصمتُّ. لم أنطق بكلمة. حتى في ذلك المساء، عندما وصلت إلى البيت متأخراً جداً، واضررت لسماع محاضرة حول تأثير التلفزيون في ضعضعة الحياة الأسرية، لم أحك شيئاً مما أعرف. ولا لاحقاً. لا لأختي ولا لأخي ولا للشرطة، ولم أنبس ببنت شفة حتى لكورنِليوس ميشِل...

لا أعرف سبباً لإصراري على السكوت طوال هذه المدة...، لكنني لا أظنه الخوف أو الشعور بالذنب أو تأنيب الضمير. ربما كان ذكرى ذلك التأوه في الغابة، والشفتين الراجفتين في المطر، وتلك الجملة الابتهالية: «دعوني إذن في سلام أخيراً!» - إنها الذكرى نفسها، التي أسكتتني عندما رأيت السيد زومر يُغرِق نفسه في البحيرة.





في ذلك الوقت، عندما كنت لا أزال أتسلق الأشجار - وهذا منذ زمن بعيد، بعيد جداً، قبل سنوات وعقود كثيرة، حينها كان طولي لا يتجاوز المتر إلا قليلاً، وقياس قدمي ثمانية وعشرين، وكنت خفيفاً لدرجة أنه كان بوسعي الطيران - لا، هذا ليس كذباً، فقد كان بوسعي حقاً أن أطير آنذاك - أو تقريباً على الأقل، أو يُفضل أن أقول: يُحتمل حقاً أنه كان بإمكاني حينذاك أن أطير، لو أني عندها قد أردت ذلك فعلاً وبإصرار، ولو أني حاولت حقاً، إذ... إذ ما زلت أذكر تماماً، أني ذات مرة كنت على وشك أن أطير. كان ذلك في الخريف، في سنتي المدرسية الأولى. كنت عائداً من المدرسة إلى البيت وكانت تهب ريح بالغة الشدة، لحد أنه كان بمقدوري دون أن أفرد ذراعيَّ، أن أميل عليها، مثل القافزين من على منصة الثلج بل وأكثر، دون أن أقع... وعندما ركضت في وجه الريح عبر المروج منحدراً على جبل المدرسة - إذ كانت المدرسة مبنية فوق جبل صغير خارج محيط القرية - وأنا أقفز عن الأرض قليلاً، فارداً ذراعي، رفعتني الريح، فصار بوسعي القفز دونما جهد لارتفاع مترين وثلاثة وأن أخطو مسافة عشرة أمتار بل اثني عشر متراً - ربما ليس بهذا الارتفاع ولا بهذا الطول، وما الفرق في ذلك -!.


ISBN 978-2-843090-68-4